وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة يحيى فارس المدية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية




القسم: علوم إنسانية

الشعبة: تاريخ

# محاضرات حول "العمران والمراكز الحضارية في الغرب الإسلامي"

(موجهة إلى طلبة السنة أولى ماستر تخصص غرب إسلامي)

**إعداد الدكتور:** أمين كرطالي

السّنة الجامعية: 2021-2022

أهدي هذا العمل إلى:

روح والدتي ووالدي رحمهما اللّه

وإلى أرواح الشّهداء في كلّ قطر من أقطار المسلمين

وإلى زوجتي وبناتي وكلّ أفراد عائلتي وزملائي في العمل وأصدقائي وطلبتي

## من شعر عبد الرحمن الناصر:

هممُ الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسنِ البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
مُلْك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

إنّ الفتح الإسلامي الذي أنار منطقة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بتعاليم دينٍ جديد سُرعان ما أينعت ثماره وسطعت شمسُ حضارته، فتفيأت الإنسانية من ظلاله الوارفة، ونشأت عدّة مراكز حضارية مرموقة، تألّقت في فترات متلاحقة، وعرفت مراحل القوّة والعنفوان، ومظاهر العظمة والأبّهة، كما نالها قسطٌ من فساد الأحوال، ونكبات الدّهر وجور الزّمان، وحلول البلاء وانحسار العمران.

ولا زال موضوع العمران والمراكز الحضارية في الغرب الإسلامي يحتاجُ إلى مزيد بحثٍ من أجل تغطيّة الكثير من الفراغات التي يلحظّها القارئ لكتب المصادر بشتّى أنواعها، ويتطلّب أيضا الخوضُ فيه إلمامًا بما تحويه المصادر التاريخية والجغرافية من معلومات حول جغرافية المدن وتواريخها، والإستعانة بما كشفته الدراسات الأركيولوجية من معلومات قيّمة باح بها التّراث المادي الذي خلّفته الدّول الإسلامية المتعاقبة، إضافة إلى كتب الفكر والدراسات الإجتماعية التي تتطرق لقضايا العمران والتمدّن بصفة عامّة .

لذلك أحببتُ أن أساهم في الكتابة حول هذا الموضوع قاصدا **الكشف عن أهمّ المراكز الحضارية في الغرب الإسلامي وما طرأ على هذه المراكز من تحوّلات مسّت العِمارة والسّاكنة في آن واحد.** مع الإجابة عن تساؤلاتٍ أخرى تتعلّق **بماهيّة العمارة الإسلامية وكيفية معالجة الفكر الإسلامي لقضيّة العمران، وما أهمّ الخصائص التي تميّزت بها العمارة الإسلاميّة خلال العصر الوسيط عن بقيّة عمارات الحضارات السّابقة.**

إنّ الدَّوافع التي دفعتني لخوض غمار هذا الموضوع هي دوافع موضوعيّة بحتة، فأثناء تحضيري لمحاضرات مقياس "العمران والمراكز الحضارية" الموجّهة لطلبة السّنة أولى ماستر، "تخصّص غرب إسلامي" بقسم التاريخ في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الدكتور يحي فارس-المدية- تولّدت لديّ عدّة تساؤلات والتي تطلّبت الإجابة عنها التّنقيب فيما كُتب عن هذا الموضوع في ثنايا كتب المراجع أوّلا ثمّ توسّعتُ في البحثِ مُنقّبا في المصادر المتنوّعة، ومن تمّ عزمتُ على المساهمة في كتابة هكذا موضوع والبحث فيه.

وقد اتّبعت في هذا البحث المنهج التحليلي عند قراءة النّصوص، والمنهج الوصفي السردي أثناء معالجة أخبار المدن والمنشآت وما تميّزت به البنايات من أوصاف، أمّا المنهج التركيبي فتمّ

اتّباعه قصد الدّمج بين الأفكار واستخراج أحكام عامّة عن العمران في الغرب الإسلامي وما تعلّق به من مسائل.

وأثناء إعدادي لهذا العمل واجهتني بعض المشاكل الموضوعيّة، وذلك لكون أغلب ما كُتب عن تواريخ المدن في الغرب الإسلامي كان المقصود منه سردَ فضائل تلك المدن ومن نبغ فيها من الأعلام ومَن زارها مِن الأعيان، أو التعرّض للدُّول المتعاقبة على تلك المدن وما جرى لها في صروف الدّهر وحوادث الزّمان؛ وليس الحديثَ عن كيفيّة إنشاء تلك المدن أوما عرفته من تحوّلات عمرانية واجتماعية وماشهدته مساحتها من اتّساع أو انكماش. أي أنّ ما بحثتُ عنه ورد ضمن كتاباتٍ عن تراجمَ للأعلام أو تأريخٍ للدّول لكن بعناوين مخادعة للقارئ المعاصر الذي لا يعرف أنّ الدّولة خلال تلك الحقبة الوسيطة كانت غالبا ما تُختزلُ في المدينة حتّى لدى النّخبة المثقّفة بسبب الاضطرابات السياسيَّة التي جعلت الشّعور بالسّلطة المركزية والدّولة الإقليمية كالوميض الخافت، لا يظهر إلا في مُددٍ قصيرة. إنّ هذه الحقيقة جعلتني أقتفي أثر كلّ إشارة تُشفُّ عما عرفته المدن من تحوّلات وذلك عن طريق استقراء كتب الجغرافيا والرّحلات واستنطاق نصوصها، وترتيب هذه الكتابات ترتيبا كرونولوجيا، وإنْ كنّا نُدرك ما تتسم به هذه الكتب من نقل المتأخّر عن المتقدّم أحيانا، وما تتميّز به من السّرد السّريع والمقتضب.

قمتُ بتقسيم هذا البحث إلى عدّة محاضرات، ففي **المحاضرة الأولى**: تكلّمت عن مفهوم العمران والعمارة الإسلامية، بينما عالجتُ في **المحاضرات الثانية والثالثة والرابعة** قضية العمران في الفكر الإسلامي وذلك من خلال الكتاب والسنة، وأيضا حسب كتب الأحكام السّلطانيّة ثمّ كتب الحسبة.

فيما تناولت في **المحاضرات الخامسة والسادسة والسابعة** أهمّ خصائص العمارة الإسلامية والتي تمثّلت في الإتصال الحضاري والإبداع المعماري، وتنوّع المواد وتعدد المنشآت، إضافة إلى ما اتّسمت به العمارة الإسلامية من مراعاة القيم الجمالية والروحية والأخلاقية.

ثمّ تطرّقت في **المحاضرات الثّامنة والتّاسعة والعاشرة** إلى أبرز التحوّلات العمرانية في بلاد الغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وإلى غاية نهاية العصر الوسيط. كما عرّجتُ في **المحاضرة الحادية عشر** على تأثير الكوارث الطبيعيَّة على العمران في الغرب الإسلامي، و

تحدّثت في **المحاضرة الثانية عشر والثالثة عشر** عن الحروب والهجرات وأثرها على العمران وأخيرا أشرتُ في **المحاضرة الرابعة عشر** إلى مسألة العمران والديمغرافية في المدينة المغربية في العصر الوسيط مع تركيزي على (مدن المغرب الأوسط) كنموذج.

يُشار إلى أنّني قد استفدتُ من بعض الدّراسات السّابقة وهي إمّا دراسات تناولت العمارة الإسلامية بصفة عامّة مثل كتاب "الآثار الإسلامية الأولى لكريزويل، وكتاب يحيى وزيري عن العمران أو البنيان في منظور الإسلام، وكتاب مُحَمَّد عبد الستار عثمان حول المدينة الإسلامية. وبحث خليف مصطفى غرايبة حول منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن ابي الربيع أنموذجا).

وتوجد دراسات أخرى تحدّثت فقط عن جزء من أجزاء الغرب الإسلامي خصوصا الأندلس كدراسة السيد عبد العزيز سالم، التي تحمل عنوان "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها إضافة إلى ما كتبه باسيليو بابون مالدونادو في كتاب" العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون"، وأيضا كتب مانويل جوميث مورينو عملا عنونه ب"الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر المرابطين وفنون المستعربين".

بينما حاول صلاح أحمد البهنسي الحديث عن عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، أمّا دراسة أحمد علي إسماعيل فتناولت جغرافية المدن بصفة عامّة، وتوجد أطروحة دكتوراه للباحث محروق إسماعيل موسومة ب "العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ/13محتى 16م".

إنّ إنجاز هذا العمل لم يكن ليتأتّى دون الرّجوع إلى عدد من المصادر والمراجع، و يأتي في طليعتها كتب الأحكام السلطانية ومسائل البنيان وأحكام الجدار على غرار كتاب المقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون والإعلام في أحكام البنيان لابن رامي و"سلوك المالك في تدبير الممالك لابن أبي الرّبيع"، و "الأحكام السلطانية" للماوردي وغيرها من الكتب التي استفدت منها في تحديد معالم الفكر الإسلامي حول قضايا العمران.

وإضافة إلى كتب الأحكام السلطانية تأتي مؤلّفات الحسبة ككتاب "معالم القربة في طلب الحسبة" لابن الأخوة القرشي و"تحفة الناظر وغنية الذاكر"لمحمّد بن سعيد العقباني" وكلها تناولت أهم القضايا والمسائل المتعلقة بأحكام الطرقات والبنايات والجدار والسقف والأسواق

وأنواع الغش التي مارسها البناؤون وصانعوا مواد البناء وهو ما أفادني في إبراز مدى اهتمام المؤسسات الإسلامية بأمر العمارة.

وأيضا استفدت من كتب الجغرافيا والرحلات ومن خلالها تتبعتُ أخبار المدن وما عرَفتْه من تحولات عمرانية وبشرية، وما طرأ عليها من تخريب أو ما شهدته من تطوّر وتعمير مثل كتاب "البلدان" لليعقوبي وكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي" و"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي ورحلات كلٍّ من التِّيجاني والعبدري وابن قنفذ القسنطيني.

واستعنت ببعض المعاجم لتحديد مفهوم مصطلحات العمارة الإسلامية مثل القاموس المحيط للفيروز آبادي، و"معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية" لعاصم مُحَمَّد رزق.

ويبقى أهمّ ما يسموا إليه هذا البحث هو التنويه بأهمّ المراكز الحضارية التي عرفها الغرب الإسلامي والكشف عن أبرز معالمها ومنشآتها والوقوف عند التحوّلات التي شهدتها والمراحل التي واكبتها، مع السّعي إلى إبراز تأثير العوامل السياسية والعسكرية والكوارث الطبيعية و ما نجم عن ذلك من هجرات سكانية على العمران والتمدّن في الغرب الإسلامي.

تفيد مادّة (ع م ر) عدّة معان من الناحية اللغوية بحسب اشتقاقها، وكلّها تؤدّي إلى معنى واحد مُشترك، فهي تعني الحياة، فعُمرُ الشّيء هو حياته ومُدّة وُجوده، ولذلك سمّت العربُ أبناءها عُمَرا وعمْرا وعامِرا تفاؤلا بأن تطول أعمارهم، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ( وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ) {**فاطر: 11** } أي ما يُطوّل الله من عمر ولا يُنقصه[1]. ومنه العُمْري وهو ما تجعله للرجل طول عمرك أو عُمره، وفِي الْحَدِيثِ(لَا تُعْمِرُوا وَلَا تُرْقِبُوا) {سنن أبي داود}، وعُمْرِيُّ الشجرِ: قديمُه، وَيُقَالُ لِسَاكِنِ الدَّارِ: عامِرٌ، وكأنّه جعل الحياة تدبُّ إلى الدّار، ومنه سُمي "الْبَيْتِ الْمَعْمُور"وهو بيْتٌ فِي السَّمَاءِ بِإِزَاءِ الْكَعْبَةِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلف مَلَكٍ يَخْرُجُونَ مِنْهُ وَلَا يَعُودُونَ إِليه.

بينما وردت لفظة العمران والعمارة بمعنى جعل الشيئ عامرا، فأَعْمَر المكانَ واسْتَعْمَره: جَعَلَهُ يَعْمُره، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:( هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها) {سورة هود:61}أَي أَذِن لَكُمْ فِي عِمارتها.

والعِمَارةُ: مَا يُعْمَر بِهِ الْمَكَانُ، ومنه أيضا العِمَارة وهي تجمّع قبلي أَصغر مِنَ الْقَبِيلَةِ وأكبر من البَطن[2]. والعمران أيضا هو نقيض الخراب، فإذا كان الخراب شبيه بالموت فإنّ العمران هو الحياة[3]، وتأتي العِمارة بمعنى الإصلاح فعمارة الشيء إصلاحه، لأنّ الإصلاح من شأنه أن يزيد في حياة الشيء وطول مدّته وبقائه، ولذلك تقول: عَمَرت المكانَ أعمرُه عِمارة، إذا أصلحتَه[4]

ومن الناحية الإصطلاحية فيمكن أن نقول أنّ العمران هو كلّ ما يُعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وما يمت بصلة إلى نشاط الأفراد والجماعات، أو ما يمكن تسميته بالعمران الحيوي أو العمران الناطق لارتباطه بحياة الناس ونشاطهم اليومي[5].

---

[1] – ابن منظور محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3، 1414 هـ، ج4، صص601-610.

[2] –المصدر نفسه، ج4، صص601-610.

[3] – محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005، ص78.

[4] – محمّد بن الحسن الأزدي، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991 م، ص15.

[5] – مُحَمَّد عليلي، فلسفة العمران الإسلامي في العصر الوسيط، العبر للدراسات التاريخية والاثرية، العدد02 سبتمبر 2018، صص44-44، ص45-46.

ويُعرفه ابن خلدون على أنّه مرحلةٌ من مراحل التجمّع الإنساني والتي تتجلى بصورة أوضح في "المدينة"، ويُعبّر عن هذا المعنى بقوله: ((الإنسان مدني بالطبع أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران وبيانه أنّ الله جعله محتاجا للغذاء، وهو ما لا يمكن تحصيله إلا بعلاج كثير من زراعة وحصاد وطحن وعجن وطبخ، والتي بدورها لا تتم دون مواعين وآلات يُوفرها الحداد والنجار والفاخوري وغيرهم من الصناع[1])).

ومن خلال هذا التعريف الخلدوني، نجد مدى عبقرية صاحب المقدّمة الذي تفطّن إلى العلاقة بين العمران المادي والعمران البشري، وذلك لكون الاجتماع البشري يحتاج بالضرورة إلى العمارة للاستقرار، فقيام الصنائع والحرف وجميع الأنشطة التي تلبي حاجات الناس مرهون ومرتبط بما يشيده الإنسان من مبان فيها سكن له وفيها مصانع يُفجّر فيها نشاطه[2].

إذا فالعمران ما هو إلا نمطٌ من الأنماط لتلبية حاجيات الإنسان المختلفة واستجابة لممارساته الاجتماعية، وهي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري لأمة، كأنها تقوم بتحديد النمط الحياتي، والسلوكي خلال تأثيراتها المباشرة على البيئة البشرية وعكسها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أية فترة تاريخية[3].

والعمارة قد تندرج تحتها أنواع من الممارسات الإنسانية، ويُصبح لكلّ ممارسة تعريف خاصّ بها، فالعمارة تدلّ على البنيان أي حرفة البناء وتقنياته، وتدلّ أيضا على التصميم الدّاخلي للبنايات والجدران وما يصحب ذلك من تزيين وزخرفة، كما تشيرُ إلى تخطيط المدن الذي هو علم توزيع الخطط وتنظيم الشوارع وتحديد أماكن المرافق والمراكز الضرورية[4].

وبعد هذه التعريفات المحدّدة لمدلول لفظة العمارة، يمكن أن نصل إلى مفهوم العمارة الإسلامية، والتي نقصد بها تلك المباني والمنشآت الدينية والعسكرية والمدنية التي تشكّلت في ظلّ سيادة دولة إسلامية أو مجتمع مسلم منذ فجر الإسلام، أو هي فلسفة الحضارة

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988 م، ج1ص54.

[2] – محمّد عليلي، المرجع السابق، صص44-47.

[3] – محروق إسماعيل، العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ/13حتى 16م، أطروحة دكتوراه ، 2017-2018، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، صص14-16؛ يحي وزيري، العمران اوالبنيان في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2008، ص21.

[4] – يحي وزيري، المرجع السابق، ص22.

الإسلامية في تخطيط المدن وتنظيمها وتشييد المباني وإقامة المنشآت العسكرية والمدنية والدينية، والمعايير والقوانين التي رافقت الحركة العمرانية والتي ساهم الدين الإسلامي واللغة العربية والفكر المشرقي المنصهر في الحضارة الإسلامية في صياغتها. فالعمارة الإسلامية تطلق على كل ما يبنى على وجه الأرض بهدف التنمية العمرانية التي تسعى إلى خدمة الفرد والمجتمع، وتستجيب لكافة متطلباته، سكنية كانت أوإدارية أوثقافية وغيرها ولا تتعارض مع العقيدة الإسلامية.

يقول محمّد عبد الستّار عثمان: ((وقد تميزت الحضارة الإسلامية بأنها وجدت في التشريع الإسلامي المفصل لنواحي الحياة دستورا مهيئا سارت عليه حركة حياة المجتمع، فالإسلام دين مدني، وساعد ذلك على سرعة ازدهار الحضارة الإسلامية بصورة منقطعة النظير،... وحقا نسبت المدينة الإسلامية إلى الإسلام، فهي بالإضافة إلى ما تتميز به المدينة من خصائص حضارية عامّة، تتسم بالصفة الإسلامية باعتبار أنّ الإسلام منهج حياة فيها[1])).

- **العمران الإسلامي حسب المستشرقين:**

اهتمّ بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم بإبراز دور الإسلام في تاريخ التمدُّن وأثره على المدينة الإسلامية أمثال (لومبارد **LOMBARD, M**)الذي أشاد باهتمام الإسلام بالتمدن وازدهار التمدن الإسلامي مقارنة بعصور التمدن السابقة عليه[2]، ومثل جانيت أبو لغد( **Abu Laughod, J**) التي تحدّثت عن دور الإسلام في السيطرة على التمييز الطبقي والتمايز الثقافي وتقليل الأبعاد الاجتماعية بين الجماعات المختلفة، أمّا "بينت **Benet,F**" فإنه وصف الإسلام بدين التمدن، وأثبت له دورا فعالا في إعادة البناء التمدني الذي نراه متمثلا في المدن، وأكد سبنسر على انسحاب السّمة الإسلامية على

[1] – محمّد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، أغسطس 1988، عدد 128، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص6.

[2] **-Lombard.M, The golden age of islam, translated by Joan Spenser, Netherland, 119-135.**

المدينة الإسلامية من عصورها المبكرة حتى العصر العثماني، وأكد أن إنشاء المدن كان من مظاهر تمسك المسلمين بدينهم الفريد[1].

وفي الطرف المقابل نجد أن بعض الباحثين الغربيين حاولوا التشكيك في وجود عمارة إسلامية قائمة بنفسها، ويُمكن في هذا الصّدد التمييز بين ثلاثة اتّجاهات:

### 1- المشككون في تأثير الإسلام على حركة التمدن:

يُمثل هذا الاتّجاه بلانهول **Blanhol** الذي ينفي أيّ دور للإسلام مُشجّع أو دافع إيجابي لحركة التمدن، ومن ثم ينفي أي تأثير للإسلام على تكوين المدينة، ويسانده في ذلك هاموند الذي يذكر بأن الحضارة الإسلامية كانت ضد حركة التمدن، أمّا ستيرن فيخلُص إلى أن المدينة الإسلامية تخلو من وجود المؤسسات لأنّ المجتمع الإسلامي لم يرث أيا من المؤسسات المدنية عن الحضارات القديمة اليونانية والرومانية، ويضيف محاولا تجريد المدينة الإسلامية من وصف المدنية: (إن الكثير من سمات ما يسمى بالمدينة الإسلامية في الواقع صفات وسمات المدينة البيزنطية الوسيطة وصفات المدينة الإيطالية[2]).

### 2- المقلّلون من شأن التمدّن الإسلامي:

من أبرز الممثّلين لهذا الاتجاه ((ماكس فيبر)) الذي يدّعي أنّ مجتمع المدينة بمعناه الكامل لم يتحقق إلا في الغرب، وله مقومات هي:" الحصون الدفاعية- الأسواق- محكمة خاصة – قدر من الترابط أو المشاركة.-حكومة ذاتية أو إدارة مستقلة جزئيا". ثم يخلص فيبر من ذلك بأن المدينة بمعناها الفعلي قامت في أوربا دون آسيا و إفريقيه وأن وجودها في بعض أجزاء الشرق الأوسط كان جزئيا ولفترات محدودة[3].

### 3- نُفاة مُصطلح "المدينة الإسلامية":

---

[1] -مُحَمَّد عبد الستار، المرجع السابق، صص183-184.

[2] – خليف مصطفى غرايية، منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن ابي الربيع أنموذجا)، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد8، العدد1، 2015، ص184.

[3] – أحمد علي إسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، دار الثقافة، القاهرة، ط4، 1988، صص68-69.

يمثّل هذا الاتجاه عدد من المستشرقين مثل سوفاجيه الذي يرى أن ما يطلق عليه (المدينة الاسلامية)) ليس سوى المدينة اليونانية أو الرومانية التي سبقتها، ويرى قيرت نفس الرأي المتصلب حيث يقول :"أن إحداث بعض التغيير لتلائم المدينة مع نظام الاسلام لا يؤدي إلى اكتسابها صفة جديدة، فقد ظلت المدن محتفظة بحالتها السابقة، وإن كانت المساجد قد حلت محل المعابد أو الكنائس، أو أقيمت فوق الآجورا، ثم ما لبثت الحوانيت والمساكن أن زحفت على الشوارع وحين انهارت الخلافة فقدت المدينة طابعها كوحدة عضوية، واصبح السكان يعيشون فيب أحياء تغلب عليها الروابط العرقية أو الدينية[1]".و وفق هذه النظرة نسب عدد من المستشرقين من الأثريين ومؤرخي الفنون المحراب إلى محراب الكنيسة المسيحية أو إلى الكوة البوذية، ويرى سوفاجييه( **j. sauvaget** ) أن المحراب قد استعير عن الكنيسة القبطية لأسباب معمارية رغم أنه يذكر عدم كفاية هذا السبب من ناحية تفسير رمزية المحراب[2].

وتأمل هذا النص لسوفاجييه وما فيه من التحامل وهو بصدد الحديث عن بناء الجامع الأموي بدمشق: (عند ذلك أتى دور المهندسين، وهم دون شك من نصارى الشام، بل قد يكونون من نصارى أنطاكية، وقد فرض عليبهم أن يعملوا في هذا الإطار الجاهز...وبين القصر والجامع ممر مسقوف يماثل تلك الممرات التي أقيمت في العهد البيزنطي، ...وقد أقيم بناء كل هذه التجديدات وفقا للتقاليد السورية، على أنه اتبع في زخرفها أسلوب القسطنطينية[3]). وهذه النبرة المتعالية نجدها أيضا عند جورج مارسييه عند قوله :(الفن الإسلامي آخر مولود لنا من فنون العالم القديم مدين بالكثير لفنون من سبقه، لأن موطنه أو المهد الذي احتضنه هو منطقة غرب آسيا التي ظهرت فيها أسمى حضارات العالم القديم، فنهل منها الكثير في شتى أنواع الفنون إلى أن تشبع من عناصرها الفنية وتفاعل بها حتى ثقلت شخصيته، وطبع طابعه الخاص، وأخذ شكله الجديد الذي يختلف عمن سبقه[4])،

---

[1] –أحمد علي إسماعيل، المرجع السابق، ص73.

[2] –توامة نعناعة، جدلية الأصول المعمارية لعنصر المحراب في العمارة الإسلامية، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، عدد11، ديسمبر 2016، صص123–149؛ ص131.

[3] – جان سوفاجيه، دمشق الشام–لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر–، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1936، ص26.

[4] – جورج مارسييه، الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرزاق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016، صص7–8.

ويضيف في موضع آخر قائلا: (العنصر المشترك في جميع البلدان الإسلامية وهو استعمال النقوش الضئيلة أو المسطحة التي عرفت بالأرابيسك، والذي ينتمي بدوره إلى فنون العالم الهلينستي القديم[1]). ويؤكد هذه الرؤية المتعالية قيرت عند قوله: (ليست هذه المدينة إسلامية لأنّ أغلب خاصياتها مستمدة من المدينة الشرقية)، كما حاول بلانهول أن يجعل السوق مقتبسة من الأروقة اليونانية الرومانية[2].

- **الردّ على هذه الاتّجاهات:**

إنّ هذه الكتابات كما هو واضح قد انطلقت من مقدّمات مغلوطة، فوقعت في تناقضات صارخة، فالأحكام التي أطلقها ماكس فيبر ومن سايره في مقولته سببها هو عدم تصوّر تمدّن ومدنيّة بدون مؤسسات وهياكل وأنماط المدينة اليونانية أوالرومانية، وتركيزهم على مسألة فقدان التنظيم البلدي داخل المدينة الإسلامية، أي أنّهم يحكمون على المدينة بما لا يوجد فيها من مؤسسات المدينة اليونانية والوسيطة دون النّظر إلى ما توفرت عليه المدينة الإسلامية من مؤسسات تكتسب خصوصيتها من خصوصيات المجتمع المسلم ودينه وأعرافه وأعراقه.

أمّا نفاة المدينة الإسلامية من المستشرقين من أمثال قيرت وسوفاجيه فعليهم أن ينفوا وجود المدينة اليونانية والرومانية لاقتباسهما عن الحضارات الشرقية القديمة، وأيضا عليهم أن يُجمعوا على رأي واحد فمرّة ينسبون العمارة الإسلامية إلى العمارة الرومانية ومرّة يدّعون أنّها أخذت من العمارة اليونانية ومرّة أخرى ينسبون ذلك إلى الحضارات الشرقية، وسبب ذلك أنهم ركّزوا فقط على بعض أوجه الشّبه والتداخلات التي تفرضها الإمدادات الحضارية التي استقبلها المسلمون بصدر رحب دون التنكّر لجهد الآخر أو إلغائه[3].

ويكفي أنّك حينَ تعجزُ عن نسبة المدينة الإسلاميّة إلى أي نوع من أنواع المدن التي أنتجتها الحضارات السّابقة للحضارة الإسلامية فذلك دليلٌ على أنّك أمام نوع جديد وطراز فريد.

وليس يضير العرب والمسلمين أن يقتبسوا من الحضارات والفنون السابقة والمعاصرة لهم ما يلائم الظروف التي كانت تحيط بهم..فمن المعروف أن الفنون تنشأ وتتكون وتتطور بالتزامن

---

[1] – جورج مارسيه، المرجع السابق، ص13

[2] – هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1993، ص149.

[3] – المرجع نفسه، ص147.

مع مراحل تطور الحضارات[1]، بينما لم يلحظوا المميزات والسمات الكثيرة التي اختصّت بها العمارة الإسلامية وروح الدمج والتهذيب والتطوير وصهر جميع المكتسبات في قالب خاص هو القالب الإسلامي الفريد.

- نفي المدينة المستحدثة:

ومن التّهم التي وجّهت للمدينة الإسلامية تلكَ التي تزعمُ أنّ المدن الإسلامية من حيثُ النّشأة هي مدنٌ عفويّة وفقط، ونلاحظ أنّ الذي أوقعهم في هذا الحكم هو تلك التقسيمات ذات الطّابع الهندسي التي اخترعوها، والتي تحاول أن تختزل جميع الأصناف ضمن نوعين أو ثلاثة أنواع ، وقد مال كتّاب المدرسة الفرنسية إلى تقسيم المدينة من حيث الإنشاء إلى مدينة عفوية تطوّرت عن معسكراتٍ دون سابق تخطيط ومدينة مستحدثة تمّ إنشاؤها بعد دراسة وتخطيط مسبق، ومن ثمّ زعموا أنّ غالبية المدن الإسلامية هي مدن عفوية وأنّ المدينة المنشأة هي استثناء في تاريخ الإسلام، ويرى جورج مارسي أنه حتى المدن المستحدثة فإن أغلبها تولد عن مقرّات عسكرية حيث تحوّلت الخيام إلى مبان، دون إرادة واعية بل نتيجة العفوية وما حتمته الظروف الجغرافية والاجتماعية والسياسية، فالمعسكر هو المقصود بالذات[2]وقد تأثر بهذا الطرح غرونيباوم ولاسنر[3].

ورغم أنّنا لا ننكر وجود بعض المدن التي قد تنطبق عليها بعض صفات المدينة العفوية على شاكلة مدينة البصرة. فإنّ شهادات المصادر التي تسرد تفاصيل بناء المدن وأخبارها، وما خلّفه التّراث المادي من تراث ضخم كلّها تُفنّد ادّعاءات النّافين عن المدينة الإسلامية أسبقية التّخطيط أو السّاعين إلى تجريدها من لقب المدينة المستحدثة، وذلك واضح في مدن سامراء والقاهرة وبجاية وغرناطة وغيرها.

[1] – فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994، ص52.

[2] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص151.

[3] – المرجع نفسه، صص152-153.

الإسلام دين شامل ومتكامل لم يقتصر فقط على نشر العقيدة الصَّحيحة و الدّعوة إلى الأخلاق الحميدة وتبيين الحلال والحرام و تفصيل شروط وأركان العبادات والمعاملات، بل هو رؤية واضحة استوعبت كل مناحي الحياة، فنظرت إلى المسلم على أنّه خليفة الله في الأرض، مأمور بعمارتها وتدبير ممالكها، والكشْف عن أسرارها لمعرفة الخالق والإهتداء إلى جميل صفاته والإذعان إلى قوته.

والعُمران من بين الأمور التي حثّ عليها الإسلام، فالفكر الإسلامي جعل المسلم يُبادر إلى العمارة لتحقيق مقاصد الشّريعة من حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، فالإنسان بتشييد المسجد يسعى إلى حفظ دينه، كما أنّه بتشييد الحصون والقلاع يرومُ حفظ بيضة الإسلام وحوزته، وببناء المساكن والرباطات والأسوار يحفظ النفس والدّين والعقل وأمّا بناء المسكن فيحافظ به المسلم على النّسل والعرض.

- **العمران في القرآن الكريم:**

جاءت آيات كثيرة تشيرُ إلى العمران والعمارة، فقد قال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ )) {الروم: 9} وهذه الآية تحثّ على التأمّل في آثار من سلف، والاعتبار بمآلهم، وتجنّب أخطائهم .

وعدّد الله نعمه على عباده وجعل من جملتها نعمة المسكن فقال سبحانه: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ) {النحل:80}

كما وردت عدّة آيات تشير إلى مساهمة الأنبياء والمرسلين في العمارة والتعمير، فقصّ علينا الحقُّ سبحانه عن إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل أنّهما قاما ببناء الكعبة، فقال: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ )}{البقرة:127}. وتحدّث المولى عزّوجلّ عن قيام الخضر وموسى عليهما السلام ببناء الجدار، فقال تعالى:(فانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ )}{الكهف: 77}، وأخبرنا تبارك وتعالى أنّ نبي الله سليمان أمر ببناء الصرح وتزيينه، فقال عزّ وجلّ: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ

لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ )}النمل:44{، وورد في قصّة ذي القرنين أنّه بادر إلى بناء الرّدم: قال سبحانه وتعالى:((قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) { الكهف:95}.

- **العمران من خلال السنّة النبويّة:**

وردت عدّة أحاديث عن النّبي صلى الله عليه وسلم تحثّ على إتقان العمل، إذ شهد صلى الله عليه وسلم جَنَازَةً، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِن لَهَا، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: « سَوُّوا لَحْدَ هَذَا » حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: « أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ »{رواه البيهقي}. ووردت عدَّة أحاديث في فضل بناء المساجد وعمارتها، فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ){متفق عليه}.

وبادر النبي صلى الله عليه وسلّم بالبناء حين شرع في إنشاء مسجده في المدينة لبضعة شهور من هجرته إليها، ولم يستغرق إنشاؤه وقتا طويلا ولم يكن أول مسجد بُني في الإسلام فقد سبقه مسجد قباء الذي أنشأة سعد بن خيثمة بناء على رأي الرسول الكريم [1]. وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون دورا ومنازل للسكنى في المدينة، وكانت في غاية البساطة، فتميّزت بعدم اتساع الحجرات، وانخفاض السقوف.

وقد روي أن خالد بن الوليد شكى إلى رسول الله ضيق منزله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (اتَّسعْ في السماء)، وهناك من فسّر الحديث بحثّ النبي صلّى الله عليه وسلّم لخالد بن الوليد ببناء طابق عُلوي، وكان لأبي أيوب بيتا من طابقين، وساهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد النبوي وحُجرات زوجاته، وبناء دار الضيافة.

ويعتبر المسجد النبوي ذا أهمية بالغة في المجال المعماري، وتمّ بناءه باللبن وتسقيفه بجريد النخل، ووضع أعمدة من خشب النخل. ثمّ بدأت تطرأ عليه تغييرات بحسب الظروف والأحوال، وجعل له ستة أبواب.

[1] – حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1981، ص48.

ومن أجل تنشيط الحركة التجارية، أمر صلى الله عليه وسلم بإنشاء سوق، وقد روى الطبراني أن رجلا جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني نظرت موضعا للسوق أفلا تنظرون إليه؟ قال: بلى، فقام معه حتى موضع السوق فلما رآه أعجبه وركض برجله، وقال نِعم سوقكم هذا فلا ينقصن ولا يضربن عليكم خراج {الطبراني}.

إنّ هذا الحديث يؤكّد على مشاورة النبي صلى الله عليه وسلّم لأصحابه من أجل اختيار المكان الملائم للسّوق، وأيضا حرصه صلى الله عليه وسلّم على حماية التّاجر والزّبون. وكان هذا السوق خارج المدينة، وهو عبارة عن فضاء واسع لا بناء فيه، يضع التجار بضائعهم على الأرض والمكان لمن سبق.

وأيضا أمر أصحابه بتنظيم الشوارع والطرقات، وفرَوَى بَشِيرُ بْنُ كَعْبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا تَدَارَأَ الْقَوْمُ فِي طَرِيقٍ فَلْيَجْعَلْ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ[1]) وبنى دار الضيافة وهي الدار الكبرى التي تُعتبر أول دار بناها المهاجرون بالمدينة، ورُويَ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ساهم في بنائها بيديه الشريفتين، وكانت ملكا لعبد الرحمن بن عوف، كما ساهم في بناء مسجد المدينة، وحفر الخندق من أجل تحصين المدينة من الأحزاب.

وفي المقابل وردت بعض الأحاديث التي يتعلّق بها من يرى أن الإسلام لم يحثّ على العمارة والعمران، ومن هذه الأحاديث أنّه صلى الله عليه وسلم جاءه الأنصار فقالوا: (يا رسول الله ابن المسجد وزينه إلى متى نصلي تحت هذا الجريد، فقال: ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى) {ابن كثير}.ومن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال:( لقد رأيتني مع رسول الله، وقد بنيت بيتا يكفني من المطر، ويظلني من الشمس، وما أعانني عليه أحد من خلق الله)، وقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم على أحد أصحابه من أهل المدينة حين بنى قبّة، وهي أحاديث غاية ما تدلّ عليه هي عدالة الإسلام ورحمته بالخلق، فقد وردت في زمن كان النّاس غير منفتحين على العمارة، وغالبيتهم من الفقراء، وللدولة الفتية متطلبات كثيرة، وأعباء خطيرة، مثل حماية المسلمين ونشر دين الله بين الخلائق[2]، وتأمين سبل العيش وضروريات الحياة للمؤمنين، فكان لزوم حياة التقشف والزهد

[1] – علي بن محمّد الماوردي، الأحكام السلطانية، الماوردي، دار الحديث، القاهرة، (د.س)، صص264-274.

[2] – فريد الشافعي، المرجع السابق، ص49.

والحثّ على التكافل الاجتماعي، وعدم الترف والتفاخر المؤدي إلى الغيرة والتحاسد هي أحد أسباب ورود مثل هذه الأحاديث، التي أمرت بعدم مجاوزة القصد في البناء، والاكتفاء بتحقيق القدر المطلوب.

- **العمران في زمن الخلفاء الرّاشدين:**

بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلم ومجيء الخلفاء الرّاشدين، ظهرت بعض المدن الجديدة، ففي عهد الخليفة عمر تمّ إستحداث مدينتي البصرة والكوفة، فأمّا البصرة فبُنيت سنة(14هـ /635م)قبل الكوفة بأشهر قليلة، وقد حلّ المسلمون بأرضها حوالي سنة(12 هـ/633م)، وكانت عبارة عن منطقة خالية من العمران، تُسمّى أرض الهند، وسمّاها العرب كذلك لأجل حجارتها البضاء الغليظة التي تُسمّيها العرب بالبصرة، وقد نزل بها الجند تحت إمرة عتبة بن غزوان، وكتب إلى عمر يستأذنه في اتخاذها قاعدة عسكرية للهجوم، وأقام الجند في البداية الخيام والقباب، واختطّ عتبة المدينة، وقسم الخطط بين الجند وفق التخطيط الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة النبوية، فقسمت المدينة إلى خطط يرأس كل خطة رئيس قبيلة أو أمير فرقة حربية، ثمّ استأذن عتبة بن غزوان الخليفة في البناء بالطين واللّبن[1].

وَقَدْ مَصَّرَتِ الصَّحَابَةُ البصرة، وجَعَلُوا عَرْضَ شَارِعِهَا الْأَعْظَمِ —المربد– سِتِّينَ ذِرَاعًا*، وَجَعَلُوا عَرْضَ مَا سِوَاهُ مِنَ الشَّوَارِعِ عِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَجَعَلُوا عَرْضَ كُلِّ زُقَاقٍ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ، وَجَعَلُوا وَسَطَ كُلِّ خُطَّةٍ رَحْبَةً فَسِيحَةً لِمَرَابِطِ خَيْلِهِمْ وَقُبُورِ مَوْتَاهُمْ، وَتَلَاصَقُوا فِي الْمَنَازِلِ[2].

أمّا سبب بناء الكوفة فهو رغبة عمر رضي الله عنه في تحويلها إلى دار هجرة، وذلك عقب نصر القادسية سنة(14هـ/635م)، حيثُ حاول سعد أن يتتبّع الفارّين ويُواصل الفتح، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه أَنْ قِفْ مَكَانَكَ وَلا تَتْبَعْهُمْ، وَاتَّخِذْ لِلْمُسْلِمِينَ دَارَ هِجْرَةٍ

---

[1] – محمّد بن جرير الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ، ج3ص579.

* الذراع: وحدة لقياس الأطوال، اختلف في قيمته من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان، فكان هناك الذراع الزيادي الذي استعمله زياد عامل الأمويين في العراق، ثم كان الذراع الهاشمي خلال الفترة العباسية الذي تراوح طوله ما بين 6.5 قبضالت معتدلات، وفي مصر استعمل ذراع العمل الذي طوله ثلاثة أشبار معتدلات أي قبضتين معتدلتين للشبر، ويحدده بعضهم ب75 سم تقريبا. ينظر: عاصم محمّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ط1، 2000، مصر، ص114.

[2] – الماوردي، المصدر السابق، ص267.

وَمَنْزِلَ جِهَادٍ، وشرَط عمر على سعد أن لا يكون بين المدينة النبوية والمدينة الجديدة بحرٌ فَنَزَلَ سَعْدٌ بِالنَّاسِ الأَنْبَارَ لكنّ مُناخها لم يتلاءم مع المسلمين، فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَى سَعْدٍ أَنَّهُ لا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلا حَيْثُ يَصْلُحُ الْبَعِيرُ وَالشَّاةُ فِي مَنَابِتِ الْعُشْبِ، فَانْظُرْ فَلاةً فِي جَنْبِ الْبَحْرِ فَارْتَدْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهَا مَنْزِلا، فَسَارَ سَعْدٌ حَتَّى نَزَلَ كُوَيْفَةَ عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ، فَلَمْ تُلائمهم أيضا فَبَعَثَ سَعْدٌ الْحَارِثَ بْنُ سَلَمَةَ فَارْتَادَ لَهُمْ مَوْضِعَ الْكُوفَةِ الْيَوْمَ، فَنَزَلَهَا سَعْدٌ بِالنَّاسِ، وَخَطَّ مَسْجِدَهَا، وَخَطَّ فِيهَا الْخُطَطَ لِلنَّاسِ[1].

وبدأ بناء هذه المدن ببساطة، على شكلِ خيامٍ متراصّة، ومسجدٍ بسيط البناء ثمّ إنّ سعدا كتب إلى عمر يستأذنه في بناء بيوت الكوفة باللبن، فكتب إليه عمر: (افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاث أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السُنَّة تلزمكم الدولة)، وعهد عمر إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر، فقالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من الترف ولا يخرجكم عن القصد. وفي أيام ولاية أبي موسى الأشعري كثُرت ساكنة المدينة فقام ببناء المسجد ودار الإمارة بالطين واللبن، وأعطاها بعدا حضاريا[2].

كما بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط سنة (20 هـ/641م)، عقب فتح مصر، حيثُ كتب إلى عمر بن الخطاب يستشيره في بناء مدينة تكون قاعدة عسكرية ودار هجرة، فردّ عليه الفاروق رضي الله عنه: (لا تجعل بيني وبين المسلمين ماء)، أي لا يجب أن تكون مدينة ساحلية، لعدم توفّر الجيش الإسلامي يومها على أساطيل ودور صناعة، وعدم معرفتهم لأساليب المعارك البحرية.

وبُنيت بموضع يُعرف بباب اليون، فوضع عمرو بن العاص فسطاطه الذي هو عبارة عن خيمة كبيرة تُتّخذ من الشّعر، ثمّ اختطت على إثرِه قبائلُ العرب بيوتها حول فسطاطه لذلك سُميت مدينة الفسطاط، قبل أن يتّسعوا في البلد ويختطوا على النيل منازلهم. وساتوطنت كلّ قبيلة من العرب موضعا خاصا بها، وبنى عمرو بن العاص مسجد جامعها ودار إمارتها المعروفة بدار الرمل، وجعل الأسواق محيطة بالمسجد الجامع في الجانب الشرقي من النيل

---

[1] – الطبري، المصدر السابق، ج3ص590.

[2] – مُحَمَّد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ص105.؛ بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، السنة الجامعية: 2006-2007، صص76-77.

وجعل لكل قبيلة محرسا وعريفا وابتنى حصن الجيزة في الجانب الغربي من النيل وجعله مسلحة للمسلمين[1].

وجاءت الخلافة الأموية فعرفت الدّولة الإسلامية نقلة نوعية في العمران، خصوصا بعد تعريب الدواوين وترجمة بعض الكتب، فكان بناء مدينة القيروان على يد عقبة بن نافع، وواسط أيام عبد الملك بن مروان، وبعد الخلافة الأمويّة نشطت العمارة الإسلامية في العصر العباسي، وظهر مهندسون أكفّاء، واستخدمت شتّى العلوم لتخطيط المدن وتشييد المباني، وبنيت مدن مثل بغداد دار الخلافة وسامرّاء وغيرها، وخرجت بلاد الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى عن سلطان خليفة بني العبّاس وبدأت تظهر الدويلات المستقّلة التي تمكّن بعض زعماءها أن يتحوّلوا إلى سلاطين يدبّرون شؤون الخلافة باسم الخليفة، وتبارى زعماء وسلاطين هذه الدّول في ميدان العمارة، ورافقت هذه الحركة العمرانية الضخمة عدّة كتابات أدلت بدلوها حول العمران، ورسمت معالم الفكر الإسلامي، وهذه الكتابات ظهرت بصورة أوضح من خلال كتب الأحكام السلطانية وكتب الحسبة والنوازل.

[1] – أحمد بن إسحاق اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ص169.

عالج مفكّرو الإسلام مسائل العمران ضمن ما كتبوه في الفقه وأحكامه والسّياسة الشرعيّة ونُظُمها و آداب الملوك وأخلاقهم وتواريخ المدن والبلدان وعجائبها والحسبة ووظائفها، وتبقى الكتابات حول النظم الإسلامية أو ما يسمى بالأحكام السلطانية وغيرها من الأسماء من أهمّ الكتب التي نظّرت للعمران.

تطرّقت هذه الكتابات إلى أنواع العمران، والذي ينقسم بحسب ابن أبي الربيع المتوفّى سنة 272 هـ، صاحب كتاب "سلوك المالك وتدبير الممالك، وأيضا ابن خلدون في مقدّمته إلى قسمين هما العمران البدوي ويسميه ابن أبي الربيع بعمارة المزارع والعمران الحضري الذي يسميه ابن أبي الربيع بعمارة الأمصار:

### 1- العمران البدوي:

يُعرف العمران البدوي في كتب التاريخ والجغرافيا بالبوادي والأرياف والفحوص والأطراف والأرباض وغيرها من الإطلاقات التي تختلف من حيثُ المعنى والتوظيف، أو يكون أبعد من ذلك في الضّواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرّمال[1].

والمقصود بعمارة هذه الأماكن هو إصلاح أرضها وزراعتها لأجل توفير أقوات النّاس[2]، فهذه الأرياف والقرى والبوادي هي مصادر قوت سكّان المدينة والمجال الرعوي الذي يضمن الأمن الغذائي لها، كما أنّ هذه الأماكن المحيطة بالمدينة هي التي تضمن استمرار حيوية المدينة من خلال النزوح السكاني التدريجي صوبها، فالمجالات البدوية هي مادّة المدن وموردها البشري الفيّاض، وكان يسمى هذا المجال بالحامية، وذلك بسبب ما يتمتّع به البدويُّ من قوّة وشراسَة وصلابة في القتال بخلاف الحضري الذي ركن إلى الأسوار وجند السلطان فصار أقلّ عزما وجرأة، وبذلك تشكل البوادي المحيطة بالمدينة جدار صدّ وحزام أمان للمدن.

### 2- العمران الحضري:

العمران الحضري هو الذي يكون في الأمصار، وهي تحمل نفس مفهوم المدن والتي حددها الجغرافيون العرب بكونها تجمُّع للحضر محاطٌ برستاق الذي يعني المواضع التي فيها مزارع تتوزّع

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، تحقيق: عبد الله محمّد درويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004، ج1 ص132.

[2] – أحمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، صص105-106.

حولها عدّة قرى وبنايات، والرّستاق يكون قائما على وجود مؤسسات أهمها السوق والسور، وهي بذلك تتميز عن القرية التي لا تتوفر فيها كل هذه العناصر مكتملة [1].

ويعرّف ابن أبي الربيع المدينة بقوله: (هي الأوطان الجامعة والتي يستوطنها أهلها طلبا للدعة والسكون، ومن أجل حفظ الأموال فيها، و صيانة الحريم والخدم من الانتهاك، والتماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع وغيره، وأنّه متى عجزت المدينة عن توفير هذه الأمور لساكنها فهي لا تصلح لتكون موطنا من مواطن الاستقرار[2])، فالمدينة إذا هي مكان حفظ النفس والأموال، ومتى فشلت في توفير هذه المتطلبات فإنّ ذلك يُفقدها قيمتها. ويُدرج ابن خلدون ضمن العمران الحضري عمارة القُرى وذلك عند قوله: (هو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للإعتصام بها والتحصّن بجدرانها[3])، ولكنّ عمران القرى يظلّ ساذجا، فالقرية تخضع للنظام القبلي بدل المؤسسات المدنية في المدينة، كما أنّ المنشئات العمرانية في القرى قليلة وبسيطة ولا تشتمل على منشئات مدنية.

ولما كان العمران الحضري هو الذي يستحقّ أن يُسمّى عمرانا، خصّه هؤلاء المفكّرون باهتمام بالغ، فتحدّثوا عن أسباب بناء المدن وأهمّ المعايير التي يجب مراعاتها عند اختيار موقع المدينة، وما يجب على من أنشأ المدينة أن يتكفّل به .

- **أسباب إنشاء المُدن:**

تنطلق كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية في تفسيرها لأسباب ظهور العمران من مقولة "الإنسان مدني بالطّبع" أي أنّ الله فطره على حب المؤانسة والرغبة في الاجتماع، وحاجة النّاس إلى بعضهم البعض من أجل تحصيل الضروريات والكماليات تدعوا إلى الاجتماع، فالإنسان الواحد لا يمكنه أن يعمل الصنائع كلها، ولذلك اتّخذوا المدن لينال بعضهم من بعض المنافع[4].

---

[1] – محمّد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999، ج1ص55.

[2] – ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص105-106.

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ج1 ص132.

[4] – ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص93-94؛ قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق : مُحَمَّد حسين الزبيدي، دار الرشيد، العراق، 1981، ص433.؛ ابن خلدون، المقدمة، ج1 صص137-139.

وتعددت أسباب بناء المدن في الغرب الإسلامي، فكانت الضرورة الجغرافية أو التطورات الاجتماعية إضافة إلى الدوافع الاقتصادية والإدارية والمتطلبات العسكرية من الأسباب التي شجّعت على ظهور المدن.

لكنّ العامل السياسي كان هو السبب المباشر والقوي، فالمدن كان يتمّ بناءها بأوامر سلطانية أو باجتهاد العمّال الذين نالوا ولاية تفويض أو أثناء تمرّدهم، وبذلك أصبح لهم حكمٌ مطلق في نواحيهم فأنشؤوا مدنا لتُخلّد ذكراهم، فالغرض من المدينة إعلان بسط النفوذ على المجال الزراعي والرعوي المتاخم للمدن وتوسيع موارد الدّولة من الخراج والجباية، وتدعيم هذا النفوذ بقاعدة للجند ومؤسسات إدارية ودينية تُظهر هيبة السلطان وقوّة تحكّمه، ولذلك كانت كثير من هذه المدن تفقد قيمتها أو ربّما وجودها عقب زوال الدّولة التي أحدثتها، لتشهد تدهورا سريعا، و تنحدر من أعلى قمّم الرقي والازدهار إلى أدنى مراحل الانحطاط المتمثلة في اندثار معالمها واندراس آثارها.

- **معايير اختيار موقع المدينة:**

لم تُغفل كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية مسألة "المعايير التي يجب أن تُراعى عند اختيار موقع المدينة" فإذا كان إنشاء المدن غرضه فرض إظهار قوّة الدّولة وتلبية حاجات الرعيّة بتوفير الحاجيات والكماليات، وذلك بمراعاة جملة من المعايير الاقتصادية والأمنية والبيئية وغيرها حتى لا تفقد المدينة سلطانها وتتقهقر فتصبح طعمة للأعداء ويهجرها أهلها[1].

أ- حصانة الموقع:

كان على من يختطّ أي مدينة أن يتحقق من حصانة المكان المزمع تمصيره، وذلك من أجل تحصين المنازل من الأعداء والذعّار [2]. بأن يكون الموضع في متمنع من الأمكنة، إمّا على هضبة متوعّرة من الجبل، وإمّا باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو[3]، وهذا المعيار هو الذي اعتمده المنصور بعد أن هجر الهاشمية، عقب وقعة الراوندية فيها وكرهه لمجاورة أهل الكوفة، فقد قال له بعض

[1] -مصطفى غرايبة، المرجع السابق، ص 193.

[2] - ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص105-106.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ج2 صص15-17.

الحكماء: (وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل إليك عدوّك، وأنت قريب من البرّ والبحر والجبل[1]).

وفي بلاد المغرب الإسلامي كانت المدينة الإسلامية في بداياتها تحترم هذا المعيار، فقبل القرن الخامس كانت المدن مركزة في المواطن الواقعة في الهضاب العليا متناثرة حول الطريق الرئيسي الممتد من إفريقية إلى المحيط الأطلسي، أما بعد القرن الخامس الهجري فإن العوامل الجديدة ونشاط الملاحة حوّلت الانتشار العمراني من الهضاب العليا إلى السّواحل بواسطة ما أحدث بين المدن الواقعة في الداخل والشريط الساحلي مثل الطريق من القلعة إلى بجاية أو من تاهرت إلى تنس أو من تلمسان إلى هنين.

ب- وفرة الأقوات:

اهتمّ مؤسسوا المدن الإسلامية بتحقيق الأمن الغذائي فالمدن يجب أن تتوفّر على المياة المستعذبة، و المراعي الخصبة والمجال الغابي الكثيف الذي يضمن وفرة الحطب[2]، وهكذا حثت كتب الأحكام السلطانية على أن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة ثرّة، وأنّه مما يراعى فيه طيب المراعي للسَّائمة، والمزارع والشجر للحطب والبناء، وقد يراعى أيضا قربه من البحر لتسهيل وصول السّلع من البلاد النائية ولبيع الفائض من المحصول للتجّار الوافدين من جنوب أوربا، ويعيب ابن خلدون على العرب في بدايات عهدهم مع التمدّن سوء اختيارهم لمواقع المدن، مثل مدينة القيروان التي راعوا فيها ما يلائم سائمة إبلهم[3]. لكنّنا نظنّ أنّ ذلك الاختيار كان صائبا حينها إذا ما راعينا الظروف المحيطة آنذاك.

ت- الكثافة البشرية:

نبّهت كتب الأحكام السلطانية إلى ضرورة وقوع المدن المستحدثة في مجال مأهول بأمّة موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو[4]. ويؤكّد ابن خلدون على ضرورة هذا المعيار من أجل ضمان بقاء المدن وصمودها، وهو ما يعبر عنه بترادف السّاكن

[1] - محمّد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ص146.

[2] - ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص105-106.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ج2 صص15-17.

[4] - المصدر نفسه، ج2 ص17.

من بدوها، فالمدن التي تفقد وفرة ساكنتها، ولا تكون بواديها سببا في ترادف السكّان بعد تحوّلهم التدريجي من البداوة إلى التمدّن ستفقد وجودها[1]، لذلك كان النزوح البدوي يغذي الديمغرافية الحضرية عبر موجاتٍ متتالية.

ث- طيب الهواء وجودة المناخ:

من أهمّ المعايير التي نصّت عليها كتب الأحكام السلطانية وغيرها فيما يتعلق بموقع المدينة المناخ وما يجب أن يتّسم به من اعتدال وأيضا طيب الهواء وجودته[2]، ففساد الهواء قد يكون سببا في توالي الأمراض والجوائح والآفات السماوية المضرّة بالزرع والضّرع والصحّة والعمران ويؤكّد ابن خلدون هذا بقوله: (والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب، وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس* من بلاد الجريد بإفريقية[3]).

- **ما يجب على السّلاطين تُجاه المدينة:**

يرى الفكر الإسلامي أنّ الحاكم هو مسؤول أمام الله على الرعيّة، ومأمور بحفظ الدّين وحماية الثغور وإصلاح شؤون النّاس، بعمارة الأرض وتنظيم العمران، فلولي الأمر أن يمنع البناء في أماكن معينة، ويبيحه في أماكن أخرى، وله أن يمنع التطاول في البنيان إلى حد معين، وأن يقصر البناء على بعض الأرض ونحو ذلك مما تحتمه المصلحة [4]. ومن مهامه تكثير العمارة وتنويع المرافق، وفي هذا الصّدد يقول الإمام الماوردي: (قد قيل فَضِيلَة السُّلْطَان عمَارَة الْبلدَانِ[5])، وهو ما يؤكده أيضا ابن طبابطا عند قوله: ((أما الحقوق الواجبة للرعيّة على الملك فمنها حماية البيضة وسدّ الثغور وتحصين الأطراف، وأمن السوابل[6]).

---

[1] - ابن خلدون، المقدمة، ج2 ص9.

[2] - ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص105-106.

* - قابس: مدينة تونسية تقع بالساحل الشرقي لتونس, تبعد عن العاصمة تونس بحوالي 405كم جنوبا، ذكر حسن الوزان أنّها قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط في داخل الخليج تحيط بها أسوار عالية قديمة، يجري جدول ماء صغير قرب المدينة. حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمّد حجي ومحمّد الأخضر، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط2، ج2ص91.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ج2 صص15-17..

[4] - مُحَّد عبد الستار، المرجع السابق، ص32.

[5] - علي بن محمّد الماوردي ، درر السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، ص101.

[6] -ابن طباطبا، المصدر السابق، ص24.

ويؤكّد قدامة بن جعفر على هذا التّكليف وأنّه كان معمولا به في زمن الخلفاء، فذكر أنّ الخلفاء كانوا يبعثون إلى من عهدوا إليه بولاية الحرب في شأن إصلاح العمارة، والتعرّف على حالها، وإصلاح ما هي عليه من الكمال والاختلال[1]. أمّا الطّرطوشي فأشار إلى واجب السّلطان ومهمّته في عمارة البلاد عن طريق حفر الخلجان والإنفاق على الجسور وسد الترع وإصلاح السبل[2].

وحثّت كتب الأحكام السلطانية بإسهاب على مسألة الإقطاع وإحياء الموات التي تحدّثت مثل قدامة بن جعفر في كتابه الخراج وصناعة الكتابة (ت337هـ/948م) والذي نصّ على أنّ من أحيا أرضا مواتا فهي له[3] والفرّاء الذي توسّع في ذكر أنواع الموات وأحكامه والنّصوص المنظّمة له[4].

فيما نجد أن ابن أبي الرّبيع قد بادر إلى سرد ما يجب أن يقوم به من أنشأ مدينة ما فذكر ثمانية شروط وهي: (سوق الماء العذب إليها، تقدير طرقها وشوارعها، بناء جامع للصلاة في وسطها، تقدير أسواقها، التّمييز بين قبائل سكانها فلا يجمع أضدادا مختلفة، أن يسكن صاحب المدينة أفسح مكان بها، وأن يحيط به خواصّه من أقارب وأعيان وحشم وأعوان، إحاطتها بسور، تدعيمها بالطّاقات البشرية من أهل العلم والصنائع[5]).

ونلاحظ أنّ ابن أبي الربيع كان سبّاقا إلى ما بات يعرف بمبدأ الاستدامة **Sustainable** في بناء المدن، مثل سوق الماء العذب وتقدير الطرق والأسواق والتمييز بين القبائل، فأركان الإستدامة ثلاثة: المجتمع والبيئة والاقتصاد[6] وهو مايؤكّد مدى رقي الفكر الإسلامي وقوّة معرفته بأمور العمران.

- **ابن خلدون مؤسّس علم العمران البشري:**

---

[1] – قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص51.

[2] – أبو بكر الطّرطوشي، سراج الملوك، دار من أوائل المطبوعات العربية، مصر، 1872م، ص126.

[3] – قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص212.

[4] – محمّد بن الحسين الفرّاء، الأحكام السّلطانيّة، تعليق: محمّد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، صص209-221.

[5] – ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص107-108.

[6] – مصطفى غرايبة، المرجع السابق، ص192.

يُمثّل ابن خلدون قمّة نبوغ العقل الإسلامي فيما يُعرف بعلم العمران، ويكفيك أنّه مؤسّس علم العمران البشري، فمقدّمته هي نُقلة نوعيّة في الفكر الإسلامي عالج فيها مسائل العمران، وكان سبّاقا إلى كثير من النظرّيات التي مهّدت لظهور علم الاجتماع البشري. فها هو ابن خلدون يتحدث عن أهميّة مقدمته فيقول: (وشرحت فيه من أحوال العُمران والمدن والتمدّن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأعراض الذاتيّة[1])، لقد اختصر ابن خلدون حقيقة التّاريخ في كونه تاريخ الاجتماع الإنساني وأنّ هذا الاجتماع الإنساني هو العُمران، وحاول أن يقف عند أهمّ ما يعرض لهذا العمران من الأحوال كالتوحش والتأنس والعصبيات.

وتنبّه إلى أنّ هذا العلم يكاد يكون مستقلا بنفسه، فقال: (وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه)، ثمّ بيّن بعض العلوم التي قد تكون مصادر هذا العلم المبتكر، مثل أصول الفقه والفقه والسياسة والأحكام وغيرها من الكتب[2].

وعرّف ابن خلدون العمران على أنّه :(التّساكن والتّنازل في مصر أو حلّة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التّعاون على المعاش[3])). وأكّد ابن خلدون على ضرورة العمران لأنّه ثمرة الاجتماع الذي هو ضروريٌّ أيضا بسبب مدنيّة الإنسان بالطّبع، ولحاجة الإنسان إلى غيره، وأنّ هذا الاجتماع يتطلّب الإذعان لسلطة قاهرة، وقوانين منظّمة وهذه القوانين إما أن تكون شريعة مُنزّلة أو أحكام وضعية[4].

وبيّن ابن خلدون أنّ العمران ينقسم إلى عمران بدوي وآخر حضري، وأنّ العمران الحضري هو قمّة العمران، ويكون نتيجة الثّراء والتّرف والدّعة، ويُصاحبه بناء القصور والمنشآت وغيرها من المدن والأمصار، ثمّ حدّد ابن خلدون عُمر المدينة بعمر الدّولة، فإن كان عمر الدّولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدّولة، وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمد الدّولة

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ج1 ص85.

[2] – المصدر نفسه، ج1 ص129.

[3] – المصدر نفسه، ج1 ص132.

[4] – المصدر نفسه، ج1 صص137-139.

طويلا ومُدّتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تُشاد، والمنازل الرّحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح، إلى أن تتسع الخطّة، وتبعد المسافة[1].

ويرى ابن خلدون أنّ المدن والأمصار قد يزيد نموّها، ويطول عمرها بطول عمر الدّولة حتّى يتّصل عمرانها، وتتّسع مساحتها، فتُصبح على الحقيقة مُدنا وأمصارا متلاصقة ومتقاربة لا يجمعها سور واحد لإفراط العمران، ومثّل لذلك بمدن القيروان وفاس وقرطبة والمهديّة.

و تعرّض ابن خلدون إلى الشروط والمعايير التي يجب أن يراعيها من يرغب في إنشاء مدينة، ونبّه إلى عدم مراعاة المسلمين الأوائل لهذه المعايير وهو ما أثّر على عمارة تلك المدن، وتحدّث عن البلاد السّاحلية وما يجبُ أن تتوفّر عليه من أجل حفظ حوزتها وتسهيل المرافق إليها[2].

إنّ ابن خلدون بسبب مهامه السياسية والعسكرية التي اضطلع بها، ورحلاته التي قام بها، وسعة اطّلاعه، ورجاحة عقله قد تنبّه إلى قُصور العمران في مدن وأمصار إفريقية والمغرب بالنّسبة لغيره في المشرق، وعزى ذلك إلى أن البربر قبل الإسلام كانوا أمّة بدوية بعيدة عن منازع الحضارة[3]. بل ذهب ابن خلدون إلى أبعد من ذلك حين قال: (أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى ما كان قبلها من الدول، وعلّل ذلك بكون العرب أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع مثل البربر، ولأنّ التديّن في أول الأمر كان مانعا لهم من المغالاة في البنيان والإسراف فيه عن القصد[4])، وهو الكلام الذي استغلّه عدد من المستشرقين لأجل نفي وجود عمارة إسلامية، رغم أنّ عبارة ابن خلدون واضحة، فهي تشير إلى الفرق في الكمّ والعدد وليس في الوجود من العدم، وواضح أنّ عمر الدّولة الإسلامية منذ فجر الإسلام إلى غاية عهد ابن خلدون لا يمكن أن يقارن بعمر الإمباراطورية الرومانية التي كان لها قصب السبق في إنشاء الكثير من المدن بما توفر لها من أسباب، رغم أنّ هذه المدن والبنايات كانت إمتدادا لنشاطات إنسانية سابقة حدثت في ظل حضارات سابقة.

---

[1] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج2 ص9.

[2] – المصدر نفسه، ج2 صص15-17.

[3] – المصدر نفسه، ج2 ص28.

[4] – المصدر نفسه، ج2 ص29.

إنّ ابن خلدون الفقيه والقاضي والحاجب والرّحالة والجغرافي والأديب والسّفير والسّياسي الطموح كان يعرف أيضا خبايا مهنة البناء، فتكلّم عن حرفة البناء التي جعلها أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، ونبّه إلى اختلاف أحوال البناء في المدن بحسب عرف أهل المدينة وما يناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر، كما أشار إلى مواد البناء وطرائقه، وحاجة الفقهاء والمحتسبين إلى رأي البنائين لفضّ الخصومات بين المتشاحنين، وحاجة السلاطين للبنّائين العارفين بالهندسة من أجل تزويد المدينة بالمرافق والمنشآت والحصون[1].

إنّ المتأمّل في مقدّمة ابن خلدون، والمتتبع للدراسات التي تناولت هذه المقدّمة بالبحث والنقد سيجد الكثير من النظريّات والقضايا التي عالجها العقل الخلدوني مُستدلّا عليها بكلّ أنواع البراهين التي استفادها من علم الكلام والفلسلفة والتّاريخ والتجارب الشخصيّة وغيرها. لكنّ ما يؤسف له أنّ هذه المقدّمة جاءت في عصر الجمود، فلم يتفطّن لها إلا قلّة قليلة من العلماء كابن الأزرق و بدرجة أقل المقريزي الذين اكتفوا بالنقل عنها دون نفثُ الروح فيها بالنّقد والإضافات والتّهذيب والإثراء.

[1] -ابن خلدون، المصدر السابق، ج2 صص103-106.

اتّسم الإسلام بالمرونة كدين، وبالشمولية كفكر فهو لا يتعارض مع المدنيّة بل يُشجّع عليها ويعمل على تهذيبها، فيما تميّز العقل العربي بالموسوعية، فهو عقل أنشأته الحضارة الإسلامية وصقلت معارفه علوم المسلمين العقلية والنقلية، وأمدّته الثقافات المتنوعة بملَكات متعدّدة، وكلّ هذه الأسباب مُجتمعة جعلت قضيّة العمران تحضُر وبقوّة في كتابات النّخبة العلمية من خلال المدوّنات الفقهيّة وكتب النّوازل والقواعد والأصول الفقهية وأيضا كتب الحسبة التي تتميّز عن بقيّة الكتابات بحسّها العملي، وواقعيّتها في الطّرح، فهي تنقلُ إلينا صورة حيّة عن المجتمع بسلبياته وإيجابياته.

إنّ كتُب الحسبة هي التي تتحدّث عن واجب المحتسب ومهامه وأهمّ ما ينبغي أن يعرفه من خبايا وخفايا وحيل المجتمع، وذلك انطلاقا من واجب الأمّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقد شاركت هذه الكتب من الناحيّة العمليّة في رسم صورة متميّزة عن المدينة الإسلاميّة وهيئتها الاجتماعية، وبذلك ترسّخت المبادئ والقيم الإسلامية في مسائل العمران وأصبحت في حكم "العرف العام" وهو ما يعكس مدى التشابه بين المدن الإسلامية في تخطيط شوارعها وتفاصيل تكويناتها المعمارية.

سُرعان ما تحوّلت كتب الحسبة إلى نظام داخلي وميثاق عمل يراجعهُ المحتسب، ويقتبس منه الخطوط العريضة التي تحدد مهامه، وبهذا أصبحت هذه التّقنينات بمثابة سلطة تشريعية وتنظيمية ورقابية وقوانين داخلية تعمل على تنظيم المجتمع وترقيته أخلاقيا وتفرض الرقابة عليه من أجل مرافقته وتقويمه مع تحديد مهام المحتسب وصلاحياته حتى لا تتداخل السّلطات.

عالجت هذه الكتابات قضايا العمران بالتطرّق لأحكام الجدار والسّقوف والشوارع والطريق وقنوات الصّرف الصحّي، كما تعرّضت لأهمّ أنواع الضّرر الذي تجبُ إزالته لسلامة المساكن وساكنيها، والشّوارع والأفنية وسالكيها، والأسواق والمتجوّلين في سككها ودروبها. إضافة إلى ذلك تناولت كُتب الحسبة مواد البناء وأهمّ شروط استعمالها في البنايات. ووقفت عند حِيَل البنّائين وصانعي مواد البناء، وتناولت معايير الجودة وشروط السّلامة في البناء، وأيضا كشفت عن مدى فقه المحتسب وكذا الفقيه بالواقع، ومعايشته له، وتفاعله مع أنماط السلوكيات المجتمعية وما يطرأ عليها من طُرق مُبتكرة وأساليب مستحدثة.

و استمدّت كتب الحسبة مادّتها من أمَّهات الدواوين الفقهية، وما كتبه فقهاء الإسلام عن نوازل الأحكام[1]. واتخذت من القواعد الفقهية والأحاديث النبويَّة مبادئا ونماذجا يُحتذى بها مثل "لا ضرر ولا ضرار" و"الضّرر يُزال" وقاعدة "الضّرورات تبيح المحظورات" "وما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب" و"الهواء يحكي القرار" "والعادة مُحكّمة".

وواضحٌ جدّا مدى استعانة المحتسبين وكذا القضاة والفقهاء بأصحاب الخبرة من شيوخ الصّناعات والعُرفاء والبنّائين والجيّارين والطوّابين والنجّارين ونحوهم من أجل إصدار أحكامهم، والفصل بين المتنازعين، فتحوّل بذلك العريف أو شيخ الصّناعة إلى خبير قضائي ونقيب مُعتمد[2].

ونصّت كتُب الحسبة على أنّ العمران هو من واجبات وليّ أمر المسلمين الذي عليه أن يأمر بالحرث والمحافظة عليه وتوفير ما يحتاجه النّاس من أقوات[3]. ولما كان المسجد هو مكان مقدّس، فأوصت هذه الكتب بالإهتمام به، وتخصيص بنّاء راتب يقوم بتفقّده وإصلاح بنائه، ويتعهّد دار الوضوء وغيرها[4].

وتحدّثت عن المساكن والشوارع والأسواق وغيرها من أنواع العمارات، وأشارت إلى أنواع الضرر الذي يلحق بالعمران وما تجب إزالته منه، إضافة إلى الحيل وأنواع الغش التي يقوم بها البنّاؤون وصانعو مواد البناء، وسنشيرُ إلى أهمّ ما تناولته هذه الكتب:

**أ- أحكام المنشآت العمرانية:**

كثيرة هي المنشآت والمرافق العامّة التي حظيت بها المدينة الإسلامية، والتي كان على كتب الحسبة أن تعرض لها وتُفصّل في أحكامها وما يجب أن تكون عليه، وما لا يجب أن يكون فيها.

1- الطرق والشوارع والأفنية:

---

[1] - ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير، جامعة مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، المكتبة المركزية، 1403، صص1-3.

[2] - المصدر نفسه، ص39.

[3] - محمّد بن أحمد بن عبدون التجيبي، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955، ص5.

[4] - المصدر نفسه، ص21.

تحدّثت كتب الحسبة عن أحكام الطّريق وما يجب أن تكون عليه من السّعة، و جعلت دليلها هو ما ورد عن عمر بن الخطاب في عهده إلى أهل البصرة والكوفة بأن يجعلوا سعة الشّوارع أربعين ذراعا وما دونها ثلاثون ذراعا والصغيرة عشرون ذراعا، وأن يجعل في المدينة أزقة، عرض الزقاق سبعة أذرع[1].

كما أنّها حثّت على احترام المارّة وعدّدت أحكام الطّريق عملا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (أعطوا الطّريق حقّها)، و روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أخذ من طريق المسلمين شبرا جاء به يحمله من سبع أرضين) {مجمع الزوائد}. فالطّريق هي مرفق عام له أحكامه، لذلك خصّص الفقهاء أبوابا تتعلّق بأحكام الطّريق فصلّت كتب الحسبة في ذكرها وأمرت المحتسب بهدم أي بناء يُضيّقُ طريق المسلمين ويضرُّ بالمارّة[2].

وأيضا حذّرت من التعرّض للأفنية التي تكون في الطّرق والشوارع، لأنّها ملكيّة عامّة[3]، وناقشت مسائل إصلاح الدّروب والطّرقات[4]. وبيّنت جواز استفادة الدّولة من الطّريق لأجل مصلحة عامّة، مع تعويض المتضرّرين من بيت المال[5]. وأدانت أيضا كلّ أشكال التعدّي على الطرقات الضيقة مثل الجلوس في قارعتها، وإخراج مصطبات الدكاكين والفواصل والأجنحة وغرس الأشجار أو ربط الدواب على الطرق، أو طرح القمامة والجيف وإرسال الماء من المزاريب، أو ترك مياه المطر والأوحال في الطرق من غير كسح[6]. وأمرت كتب الحسبة بضرورة منع أي تسرّب لمياه قنوات الصّرف الصحي في الطّرقات، خصوصا في فصل الصّيف[7].

---

[1] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، صص175-176.

[2] – ابن الرامي، المصدر السابق، ص192.

[3] – المصدر نفسه، ص211.

[4] – المصدر نفسه، ص216.

[5] – المصدر نفسه، ص 226.

[6] – محمّد بن محمّد ابن الإخوة القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمّد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، العيئة المصرية العامة للكتاب،ط1، 1976، صص135-136؛ محمّد بن أحمد العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، **Extrait du bulletin d'Etudes Orientales de l'institut Français de Damas**، 1967 صص62-66؛ أحمد بن عبد الله بن عبد الروؤوف، في آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955، ص111

[7] – التجيبي، المصدر السابق، ص37.

يقول الجرسيفي: (ويجب عليه –المحتسب– النظر في شوارع المسلمين وأسواقهم، فيما ينجسها أو يوعرها أو يظلمها أو يضيقها، كالأجنحة والسّوابيط، والبيع في الطرق، لما في ذلك من تضييق شوارع المسلمين، وقد أمر عمر بهدم كير الحدّاد الذي مرّ به في الطريق، وكذلك إحداث الكُنف والميازيب والسباخات، وطرح الميتة وشبه ذلك[1])).

وهذا الكلام يفند ما ذكره سوفاجييه عند حديثه عن المدينة الإسلامية وما عرفته من العشوائية بسبب التعديّات على الطريق والمساحات العامّة بقوله: (مما سهل حصول تلك التعديات أن الشريعة الإسلامية لا تعرف أحكاما خاصة بنظام المدن، ولا بالمؤسسات البلدية[2] )، رغم إقرار سوفاجييه بوجود سلطة المحتسب والتي اعتبرها سلطة غير كافية ساعيا إلى تقزيمها، متجاهلا أنّ هؤلاء المحتسبين كانوا يتحرّكون وفق التشريع الإسلامي ونصوصه الصريحة التي تصدت لكل أنواع التعدّي على الطرقات والأسواق.

2- الجدار والسّقف:

عالجت كتب الحسبة مسائل الجدار وأحكامه، وقد خُصّ الجدار بكتابات للفقهاء مثل كتاب الجدار لعيسى بن دينار وأحكام الجدار للتطيلي[3].و تحدّثت هذه الكتب عن تنازع الجيران حول الجدار المشترك[4]، وحُكم وضع باب في هذا الجدار أو هدمه ومن الذي يجب عليه أن يبادر إلى إصلاحه إن كان مائلا [5]. وأشارت إلى بعض ما يتعلق بالخشب المسند للجدار والنوافذ التي تكون في الجدار[6]، ونصّت كتب الحسبة على هدم الحائط المائل[7]، ويقول التجيبي عن ذلك: (ولأنّ البنيان هي الأكنان، ومأوى الأنفس والمهج والأبدان، فقد وجب تحصينها وحفظها، لأنها بتعريض الحيطان، وتدعيمها بالخشب، وانتقاء الخشب الجيد

---

[1] – عمر بن عثمان الجرسيفي، في آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للثار الشرقية بالقاهرة، 1955، ص122.

[2] –سوفاجيه، المرجع السابق، ص31.

[3] – عيسى بن موسى التطيلي، كتاب الجدار، إبراهيم بن مُحَمَّد الفايز، الرياض، ط1، 1996، صص119-120.

[4] – ابن الرامي، المصدر السابق، ص6.

[5] – المصدر نفسه، ص35.

[6] – المصدر نفسه، ص33.

[7] –العقباني، المصدر السابق، صص62-66.

والحجر الوافر[1]).كما تحدّثت كتب الحسبة عن السّقف وما يجب أن يكون عليه، وأيضا أحكام السقف المشترك بين من يسكن في الأعلى ومن يسكن في الأسفل [2].

3- أحكام الأسواق:

عالجت كتب الحسبة قضيّة السّوق، وحثّت المحتسبين على النظر في الأسواق والطرقات وأنّ الأسواق يجب أن تكون على معايير متّفق عليها، فينبغي أن تكون من الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديما، وهو يؤكد ظاهرة الاقتباس عن الأمم السّابقة، وحذّرت من أن يُخرج أصحاب الدّكاكين المصطبات* فيُضيّقوا الطّريق – لأنه عدوان وتضييق على المارة.

وتكشف كتب الحسبة أنّه كان لكلّ صنعة سوقا يختص بها تعرف به صناعتهم، فمن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز والجردقاني*، فعلى المحتسب أن يبعد حوانيتهم عن البزازين* والعطارين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار[3]. وحذرت كتب الحسبة من البيع في الطّريق أو إحداث بناء يجعل الشوارع مظلمة، وذلك لأجل الحفاظ على سلامة المنظر[4].

**ب- أنواع الضّرر الذي تجب إزالته:**

إنّ المتأمّل في كتب الحسبة سيجد أنّها قد حذّرت من جملة من الأضرار والتي بعضها يتعلّق بالسمع وبعضها الآخر يتعلّق بالشمّ إضافة إلى ما له علاقة بالبصر.

1- ما تعلّق بالسمع:

مارس المسلمون بعض المهن والنّشاطات التي ينجم عنها انبعاث الأصوات المزعجة مثل حرفة الحدادة وغيرها، لذلك حرص المحتسبون على منع أيّ ضرر قد يُحدثه هؤلاء الصنّاع فابن

---

[1] – التجيبي، المصدر السابق، صص34-35.

[2] – التطيلي، المصدر نفسه، صص132-133.

* المصطبة بناء من الحجر أو الآجر يقام بجانب وجهة الدكان ويبلغ ارتفاعها نحو المتر، وسطحها في مستوى أرضية الدكان، ويجلس عليها صاحب الدكان مع زبائنه.

* الجردقاني: نسبة إلى الجردقة وهي الرغيف.

* البزاز: صانع الثياب.

[3] – ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968، ص17؛ ابن الإخوة القرشي، المصدر السابق، صص135-136.

[4] – الجرسيفي، المصدر السابق، ص122.

الرامي البنّاء نصّ على منع الكمادين* وأصحاب الأرحية[1]، كما أنّهم اعتبروا إحداث إصطبل للدّواب في مكان آهل بالسكّان مُضرّا بسلامة السّكان بسبب الأصوات التي تحدثها الدواب في الليل والنّهار، ناهيك عن الروائح الكريهة، وأيضا لأنّ بعض الأصوات قد تؤثّر على سلامة البنايات، وتُحدث شقوقا في الجدارات[2].

2- ما تعلّق بالشمّ:

من الأمور التي حذرت منها كتب الحسبة ما يضرُّ بحاسة الشمّ، كدخان الحمامات والأفران وما قاربه، ورخّصت كتب الحسبة في الدّخان الذي لا بدّ منه مثل دخان التنور والمطابخ وما قاربه، وقد استدّل ابن رامي البنّاء على اعتبار ضرر الدخان بقول الله عز وجل: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم) {الدخان:10}، مُستدلا بذلك على أنّ الدخّان هو من العذاب[3]. ومن الحرف التي كان يؤمر بإبعاد أصحابها عن المنتجعات السكانية السنفاج*، وأيضا أصحاب طواجين قلي الشعير[4]، إضافة إلى مربّي المواشي وغيرها ممّا قد يتسبب في انبعاث روائح منتنة[5].

3- ما تعلّق بالبصر:

حثّ الإسلام على حفظ الأعراض، وأمر بالتستّر ونهى عن التجسّس على البيوت أو إطلاق البصر في العورات، لذلك شدّد الفقهاء والمحتسبون في ذلك، ومنعوا أي وسيلة قد تجعل عورات المسلمين ظاهرة، أو تُسهّل من الاطلاع عليها عبر الكواء(النوافذ) والأبواب، والجميع قد استدلّ بعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رجلٍ أحْدث غرفة تُطلُّ على دار جاره، ثمّ فتح فيها كُوةً، فكتب إليه عمر ابن الخطاب أن يوضع وراء تلك الكوى سرير، ويقوم عليه رجل فإن كان ينظر إلى ما في الدار منع من ذلك، وإن كان لا ينظر لم يمنع من

---

* الكماد: هو القصاد الذي يدقّ الثوب وكل ذلك يمنع إن أضر بالجدار والبناء.

[1] - ابن الرامي، المصدر السابق، ص107.

[2] - المصدر نفسه ، ص117.

[3] - المصدر نفسه، ص97.

* -السنفاج: صانع الاسفنج وهي أكلة تقليدية لا تزال عندنا في الجزائر.

[4] - ابن الرامي، المصدر السابق، ص101.

[5] - المصدر نفسه، ص117.

ذلك[1]. ومن أنواع التعدّي المتعلّقة بالبصر كأن يفتح نافذة ينظر من خلالها إلى بيت جاره أو سطحه أو فناءه، وهذا النوع من الضرر اتفق الفقهاء على دفعه، واختلفوا فيمن علا سطحه على سطح جاره فمنهم من ألزمه بتسويره وأما المالكية فلم يلزموه بالبناء لكن منعوه من الصعود إليه[2]. وممّا حذّرت منه كتب الحسبة وقوف النّساء على أبواب الديار لمنع ما يُحدثُه ذلك من الكشفة وعدم الاستتار[3].

**ت– كشف حيل بعض البنّائين وصانعي مواد البناء :**

برهنت كتب الحسبة عن مدى إلمام مؤلفيها بحيل البنّائين وكذا صانعي مواد البناء وكيف أنّ النّخبة لم تكن منفصلة عن المجتمع أو بعيدة عن الواقع، فمن خلال معالجة هذه الكتابات لقضايا الغش وفضح المحتالين، أمكننا التعرّف عَرَضا على طرق وتقنيات صناعة مواد البناء، وأهمّ الأساليب التي اعتمدها البنّاؤون، ومعايير الجودة في ذلك العصر، وطرق الغشّ في صناعة الجبس وغيره من المواد*، وبيّنت وجود عريفٍ وهو شيخُ صناعة يكون ثقة وعارفا يمارس رقابته على أبناء حرفته بكلّ صرامة وشفافية ويسمّى هذا العريف أيضا شيخ صناعة والنّقيب، فعريف الجبّاسين يحرص على أن يتمّ تصفته وعدم خلطه بما يُذهب صلابته[4].

ونفس الشيء بالنّسبة للنجارين والبنائين والفعلة، الذين ينبغي أن يعرف عليهم عريفا له دين وبصيرة بصناعتهم، وحرصا على حماية الزّبون نهت كتب الحسبة عن بعض تصرّفات البنّائين، مثل تهوين تكاليف البناء وتقليلها، حتّى إذا شرع صاحب العمل في البناء كشفوا له عن التكلفة الحقيقية[5].

---

[1] – ابن الرامي، المصدر السابق، ص125.

[2] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 165.

[3] – ابن عبد الروؤوف، المصدر السابق، ص113.

* الجبس: هو خام من كبريتات الكالسيوم المهدرنة، وضرب من الحجارة تطحن وتحرق لتستخدم في البناء، ويسمى جصا أيضا، وجصّص الحائط أي طلاه بالجص أو الجبس واستخدمت هذه المادة في البناء والزخرفة، واتقلت إلى الشمال الإفريقي فظهرت في جامع القرويين بفاس خلال القرن 6هـ/12م، ومنها إلى الأندلس فبلغت فيها شأوا بعيدا من الدقةوالكمال في واجهات قصر الحمراء بغرناطة خلال القرن 7هـ/13م. مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، ص63-64.

[4] – ابن بسام، المصدر السابق، ص6؛ ابن الإخوة القرشي، المصدر السابق، صص343-346..

[5] – ملحق 1.

ومن أجل ضمان سلامة البنايات أمرت كتب الحسبة بتغريم البنّاء الذي لا يستعمل الزوايا والموازين والخيوط التي تُقوّم البناء، وتمنع من ميلانه[1]. ونكتشف من خلال مؤلفات الحسبة أنّ ميثاق الشرف وأداء اليمين كان معروفا لدى الصُنّاع في الحضارة الإسلامية، فكان البناء يحلف بحضرة عريفه أنه لا يأخذ من الجباسين رشوة ولا هدية وإذا وجد عيبا في السلعة كشفها للزبون ورفض البناء بها.

كما أوجب رجال الحسبة على البنّائين النصيحة لأرباب العمل، وبيّنوا كيفية خلط الجير ومواد البناء وحذّروا من البناء بالطوبِ* القليلِ النُضج اللين كي لا يتفتّت وهو ما يؤدي إلى سقوط الجدار[2]. وبيّنت كتابات رجال الحسبة بعض أنواع الغش التي يقوم بها الطوّابون وهم صنّاع الطّوب، فعليهم أن يقوموا بملء القالب جيّدا، حتّى تكون الطوبة سليمة، وأن يكون الطّين من النوع الجيّد، ويتمّ طبخه بطريقة سليمة، ويكون القالب في حالة جيّدة وغير مهترئ[3]. وكانت القوالب متعارفا عليها، فربّما علّق النّقباء أو المحتسبون القالب المتعارف عليه في الجامع، حتّى يتمّ صُنع قوالب في مثل مقاسه، ويحتكم إليها المحتسب عند حدوث خلل في البناء أو خصومة مع رب العمل[4].

ومن أنواع الغشّ الذي مارسه بعض الجبّاسين صناعة القطائف، وهي الجبس المخلوط بالتراب، وأيضا تهاونهم في غربلة الجبس، لذلك طالبتهم بأن يغربلوا الجبس بالغربال الوسط ونفس الشيء بالنّسبة لصانع الآجر* والقراميد[5].

---

[1] – ابن بسام، المصدر السابق، ص144.

* – الطوب: هو المضروب من الطين مربعا أو مستطيلا ليبنى به، وهو إما محروق يعرف بالآجر، وإماغير محروق يعرف باللبن، ويقال إن معاوية بن أبي سفيان كان قد بنى قصر الخضراء في دمشق أول الأمر بالطوب ثم أعاد بناءه بالحجر، وقد لجأ المسلمون إلى البناء بالطوب لقلة الأحجار الموجودة لديهم ولا سيما في مصر وبلاد ما بين النهرين. مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، ص184.

[2] – ابن بسام، المصدر نفسه، صص144-146.

[3] – المصدر نفسه، ص155.

[4] – التجيبي، المصدر السابق، صص34-35.

* الآجر: لفظ فارسي معرب معناه اللبن إ\ا طبخ لكي يستخدم في البناء ، وهو أنواع منه آجر الجدران والآجر الحراري والمثقوب واللمجوف والمزجج والمستدير والمقولب والمملوء والمهذب، واستخدم في البلاد التي يندفيها الحجر، وظهرت قوالبه بقياسات مختلفة، وقد بلغ قالب الآجر في زمن العباسيين بحسب كريزويل: ذراعا مكعبا، يزن مائتي رطل، واستحدم في عدّة مجالات مثل استخدامه في المقرنصات وأيضا استخدم للونه الألأحمر في بناء عقود جامع قرطبة. مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، صص11-12.

[5] – ابن عبد الروؤوف، المصدر السابق، ص112.

إنّ الإسلام هو دين عمارة الأرض وإصلاحها، وقد تغلغل هذا الدّين في قلوب من أقبل عليه من الأمم عربا وعجما، ومنحهم نظرة جديدة إلى الحياة، فنهضت هممهم وتفتقت أذهانهم فأقاموا حضارة فريدة من نوعها عُلوية المقصد أرضيّة المنطلق، تُطلق لروح الإبداع عنانها، وهو ما انعكس على العمارة الإسلامية التي اتّسمت بعدّة خصائص يُمكن أن نبرزها كالتالي:

- **الاتّصال الحضاري:**

إنّ مرونة الإسلام وما اتّسمت به قواعد الشّريعة من سماحة وقبول لكلّ ما هو حسن، تحت قاعدة "الأصل في الأشياء الإباحة" و"ما لا يقوم به الواجب فهو واجب"، جعلته في الجانب المعماري يقتبس من الأمم والحضارات السّابقة كثيرا من فنون وأساليب العمارة.

ويكفي أن نقرأ كتب النظم والخطط السلطانية وأخلاق الملوك وسياساتهم النافعة التي حرّرتها أقلامٌ مُسلمة عاشت في كنف الحضارة الإسلامية حتى نرى كم هي مليئة بالأخذ من أفكار الفرس والرومان في مجال العمران بدءا من معايير اختيار موقع المدينة ووصولا إلى أحكام الأسواق والمساجد والمساكن وغيرها من المرافق، وذلك مثل نقلهم عن الحكماء المتقدمين من الروم قولهم: ( أصلح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس رتيق ليكون مطلا[1]).

وبعد مُضي العهد النبوي وعهد الخلفاء الرّاشدين اللذيْن اتّسم فيهما العمران بالبساطة، جاء العهد الأموي لاسيما إبّان حكم الفرع المرواني لتبدأ أولى مراحل التعمير الحقيقية، فاقتبس المسلمون في البداية فنون البناء عن الحضارة الهلينستية الشرقية وكذا عن البيزنطيين و الساسانيين، وواضح وجود المؤثرات الهيلينة والرومانية في بلاد الشام، مثل الجامع الأموي و قبة الصخرة التي بُنيت على النمط الروماني من حيث الهندسة والشكل.

بينما تمّ تزيين تلك المباني والصروح العمرانية برسومات ذات نمط مشرقي، أين تلوحُ للنّاظر لفائف الأكانتوس التي تحمل عناقيد العنب وبعض الزخارف النباتية الخيالية[2] وصور العنب وأشكال السلال التي تخرج منها فروع نباتية والأشكال المنحنية وشجرة الحياة، ويمكن أن نعتبر هذه الرسومات هي أساس الزخرفة والزينة في العمارة الأموية، وقد اصطحب الأمويون

[1] – مُحَمَّد عبد الستار، المصدر السابق، صص36-37.

[2] – ك.كريزويل، الآثار اللإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1984م، ص84.

معهم التقليد الشامي إلى الأندلس مؤسسين عليه حضارتهم الثانية ويبدو ذلك واضحا في إبداع الأقواس والقباب وزينتها الهندسية خاصة مسجد قرطبة[1].

وفي عهد الخلافة العباسية نضج الفن الإسلامي وأصبحت له سمة مميزة عن باقي الفنون، فتغيرت الأساليب المعمارية والزخرفية، وكان التأثير الفارسي واضحا، إذ اتجه البناءون إلى استعمال الآجر بدلا من الحجارة، والدعامات بدلا من الأعمدة، وظهرت القباب الدائرية ونصف الدائرية والأقواس والعقود نصف الدائرية والعقود المدببة وظهور المداخل الملتوية كأبواب مدببة، وإقامة قبتين على بلاط*المحراب كما فعل الأغالبة في القيروان.

وكثرت المآذن الحلزونية، وتمّ تغطية الجدران بالجص بدلا من الفسيفساء، وابتكر المسلمون طرُزا خاصة في زخرفة الجص، وهو ما يبدو واضحا في بوابة مدينة المنصور وقصر الجوسق الذي بناه المعتصم، حيث الأشكال الآدمية ذات الطابع الشرقي بالإضافة إلى أشكال الطيور والحيوانات وحوريات البحر والراقصات، وانتقل هذا الطراز العباسي إلى مصر على يد ابن طولون[2].

وبعد القرن الثالث الهجري يُلاحظ أن البنّاء المسلم قد اقتبس من فنون الحضارات السَّابقة الأخرى مثل الفن السلجوقي المقتبس من التراث التُّركي الذي يقوم على زخارف هندسية ونباتية مستوحاة من أشكال حيوانية من طيور وأسماك وخيول مبتعدين بها عن أصولها الحيَّة انضباطا بالشَّرع الحنيف، ناهيك عن الوافد الصيني الذي تُؤكده فنون الزخرفة المشهورة بالخطاوية التي نشأت في إقليم الخطا بتركستان الشرقية (إيغورستان) قبل أن يضيف إليها الفنان المسلم زهرة السوس والقرنفل والأوراق النباتية وخاصة الرمحية المسننة.

---

[1] – أحمد السراج، العمارة الإسلامية خصائص وآثار، غزة، 2015، ص22.

* بلاط الأرض: هو وجهها أو الصلب وكل مستو أملس، وكان المسلمون يقومون بصف البلاط أو الرخام موازيا للحائط من أسفله، ثم يجعلون الصفوف التالية متعامدة على الصف الأول، وقد تفنن المسلمون في ابتكار أنواع عديدة من البلاط الذي استخدموه في فرش أرضيات عمائرهم الدينية والمدنية على السواء، فكان البلاط الحجري المصنوع من الحجر الرملي أو الجيري والبلاط الخزفي المعمول من الخزف الذي عو عبارة عن طين وصلصال مشوي بالنار ومغطى بطبقة من الزجاج ليصبح خزفا والبلاط المنشور وهو الملمع المصقول ذو أبعاد منتظمة يغلب على الظن أن الحجارين أو المرخمين كانوا ينحتونها على هيئة المنشور الهندسي حتى اكتسب منه هذه التسمية. محمد رزق، المرجع السابق، صص36-38.

[2] – أحمد السراج، المرجع السابق، ص 22.

كما أنّ التأثيرات القبطية كان لها أثرٌ بارز من خلال فن النسيج والحفر في الخشب والعاج والتُّحف المعدنية، وكان الفن القبطي وسيطا بين الحضارة الفرعونية والحضارة الإسلامية، وبذلك اتّسم بنزعته الرمزية الهندسية التجريدية والتي نتجت من إدراكه لعلاقة النيل والأرض .

وحقا استطاع المسلم أن يلائم ويمزج بين كلّ تلك المخلّفات الحضارية، ويوائم بينها وبين بيئته، ويقتبس منها ما يتماشى مع تعاليم دينه، فصاغ تلك الأساليب المعمارية وطورها رويدا رويدا حتّى غدت طرازا قائما بذاته، خصوصا بعد ظهور الطراز المغربي الأندلسي الذي كان مسجد قرطبة الذي بناه عبد الرحمن الدّاخل هو أيقونته التي أفضت إلى نشأة العمارة المغربية[1].

إنّ هذا التنوع في أساليب البناء والزخرفة جعل بعض المتعصّبين ضدّ الحضارة الإسلامية على شاكلة المستشرق شاخت يجنحون إلى القول أنه من المستحيل أن نتكلم عن عمارة إسلامية وكل ما في الأمر أن هناك عددا محددا من الطرز المعمارية الإقليمية المنفصل بعضها عن بعض والتي لا تصبح إسلامية إلا بطريقة عرضية[2].

وما من شكّ أنّ هذا الكلام هو مُجرّد مغالطة، وتكذيب صارخ لشواهد التراث المادي الضخم الذي خلفته الحضارة الإسلامية والذي يؤكّد أن أخذ المسلمين عن الحضارات السّابقة كان مُفعما بالإضافة والتهذيب والتنسيق، وأنّ ما أبدعه المسلمون يفوق ما نقلوه عن غيرهم، فمن الطَّبيعي أن لا يبدأ المسلمون من الصّفر، فالحضارات تتكامل وتُعْمِل ما ورثته عن الحضارة السابقة ولا تهمله، وتبني عليه صرحها ولا تهدم أسُسه القائمة، وهكذا تمّ صهرُ كلّ مخلفات الحضارات السابقة ضمن بوتقة مُبتكرة في ظل الحضارة الإسلامية الفريدة بروح مُفعمة بالإضافة والصّقل والتّهذيب والتّطوير. كما أنّ وجود بعض العناصر البيزنطية وغيرها في العمائر الإسلامية يعودُ لكون المسلم لا يهدم الأبنية القديمة الصّالحة للعمارة بل يكتفي بترميمها وإدخال العناصر الإسلامية عليها، فالتبذير محرّم في شريعة الإسلام، وحتّى تلك التي لم تعد صالحة للبناء استخدم المسلم أعمدتها وتيجانها وأخشابها وما بقي صالحا

[1] – محروق إسماعيل، المرجع السابق، ص22؛ السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، عالم الفكر، الكويت، العدد01، جوان 1988، ص74.

[2] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 2.

منها في إنجاز منشآته الجديدة، وبذلك حفظت الحضارة الإسلامية الإرثَ الإنساني ومنعته من الضياع، وكانت حقا حلقة وصل بين الأمم.

- الإبداع والابتكار:

من خصائص الحضارة الإسلامية دعوتها إلى الاجتهاد في جميع ميادين الحياة، من أجل عمارة الدنيا وحفظ الدّين، وفق مقاصد الشريعة وغاياتها الحميدة، وكذلك هو الشأن بالنسبة للعمارة الإسلامية التي رغم اقتباسها عن الآخر فإنّها لم تُصبح أسيرته أو نسخة أخرى منه، بل سرت فيها روح الإبداع والتّجديد والابتكار وأثمرت الكثير من المبتكرات في مجال العمارة. و كان المسجد النبوي الشَّريف هو باكورة الأعمال العمرانية للدولة الإسلامية الفتية، فكان هذا المسجد رغم بساطته نموذجا لم يسبق إليه، فهو عبارة عن فناء مركزي محاط بالأروقة ومنها تتفرع الشوارع عبر بواباته، فهو قلب المدينة الإسلامية وتاج العمارة[1].

- المئذنة:

أبدع البنّاء والمهندس المسلم في تصميم وإنجاز عدّة أعمال عمرانية لأغراض دينية أو عسكرية أو جماليّة مثل المآذن التي نشأت مع بداية العصر الأموي، وكان الغرض من بنائها دينيا محضا، فالقصد هو أن يبلغ الصوت أبعد مدى ممكن، وكان المسجد النبوي وكذا مساجد البصرة سنة (16هـ/637م) والكوفة سنة(17هـ/641) ومسجد عمرو بن العاص (21هـ/641م) بالفسطاط خالية من المآذن حتى أمر معاوية بن أبي سفيان واليه مسلمة بن مخلد أن يبني لجامع عمرو أربع صوامع للأذان في أركانه، والتي كانت على ما يبدوا عبارة عن أبراج آجرية مربعة قليلة الارتفاع، يصعد إليها بواسطة درج يرتقيه المؤذنون من خارج المسجد حتى نقله خالد بن سعد إلى داخله.

ثمّ جاءت مئذنة الجامع الأموي بدمشق، والتي هي حقّا أوّل مئذنة حقيقيّة صارت نموذجا يُحتذى به، ومن دمشق انتقلت إلى إفريقية فكانت مئذنة (جامع سيدي عقبة بالقيروان) هي أولى مآذن إفريقية والتي أسست في عهد هشام وهي على شكل برج ارتفاعه 31 متر ومكونة

[1] - أحمد السراج، المرجع السابق، صص24-25

من ثلاث طوابق كل طابق أصغر من الذي تحته، ومثلها مئذنة مسجد الكتيبة بمراكش والمسجد الجامع بإشبيلية، وصومعة جامع أجدابية المثمنة [1].

وفي الحقبة العباسية بلغ النّبوغ الإسلامي في ميدان العمارة الإسلامية أوجه، فصار مثالا يُحتذى به، خصوصا في العصر العبيدي حيثُ تنوعت المآذن بين الحلزونية أو المشكلة من ثلاث طبقات مربع ثم مثمن ثم اسطواني في العصر العبيدي وغيرها من المآذن [2].

- الأبراج والحصون:

تفنّن المعماري المسلم في إنشاء الأبراج والحصون، خصوصا في عهد الدّولة السّلجوقية وما عرفته من انتشار لجماعات الإسماعيلية التي برزت منها طائفة الحشّاشين، وحين قدم الصّليبيّون إلى المشرق كغزاة، سرعان ما هالتهم عمارة المشرق ونعيمه، فاقتبسوا عن المسلمين طرق بناء الحصون بعد أن أبهرتهم الحصون الشامية، وخاصة الأبراج* والممرات الداخلية الملتوية والمزاغل*. واقتبس النورمانديون من المسلمين فنون تشييد الأبراج مثل البرج المسمى برج بيش بالقصر الملكي النورماني في بلرم الذي تمّ تصميمه على نمط قصر المنار في قلعة بني حمّاد الذي شيد في القرن (5هـ/11م)[3].

- المحراب:

---

[1] –مُحَّد رزق، المرجع السابق، ص69؛ أحمد السراج، المرجع السابق، ص52.

[2] – أبو عبد الله بن محمّد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحقيق: حماه الله ولد السّالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص19.

* الأبراج: جمع برج وهو البيت الذي يبنى على سور المدينة أو على سور القلعة والحصن الذي يكون مرتفع البناء مستديرا أو مربعا يعتصم به المقاتلون، وكان يشتمل على شرفات علوية توزع بشكل مدروس في أعلى واجهاته لكي يحتمي بها الرماة عند الدفاع عنه، وعلى مزاغل ومقاذف مفتوحة في جدرانه المطلة على الخارج ذات فتحات داخلية متسعة وخارجية ضيقة لتمكن المداتفعين من سهولة الدفاع عن البرج دون إمكان تعرضهم منها لسهام المهاجمين، ويشتمل على مخازن المؤن والأسلحة وصهريج المياه والبئر وغير ذلك، ولم يقتصر بناء الأبراج في العمارة الإسلالية على الغرض الدفاعي في الأسوار وعلى جانبي البوابات، بل كثيرا ما بنيت لدعم جدران العمائر الأخرى ذات الأطوال الكبيرة والارتفاعات الشاهقة، مثلما حدث في أسوار جامع قرطبة. مُحَّد رزق، المرجع السابق، ص34.

* المزاغل: هي عبارة عن فتحات ضيقة تكون في سور المدينة أو القلعة أو الحصن أو البرج أو البوابة تطلق منها الرماح والسهام وغيرها من المكقذوفات على المهاجمين، وتستعمل أيضا للتهوية والإضاءة والمراقبة، وتكون ضيقة من الخارج ومتسعة من الداخل. المرجع نفسه، ص281.

[3] – عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، 1980، ص113.

من العناصر التي ابتكرها المعماري المسلم المحاريب، التي تستخدم في جدار القبلة لتعيين اتجاهها، وفكرته ظهرت في السنة الثانية للهجرة، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم وضع المحراب بنفسه في مسجد قباء، وكان المحراب في البداية عبارة عن تجويفين في الجدار، وتطورت المحاريب بعد ذلك فكان منها المجوف كمحاريب الشام والمغرب أو ذات مسقط من أضلاع متعاقدة في العراق (عباسي)، ومنها المسطح مثل محراب المغارة تحت الصخرة في بيت المقدس [1].

بينما في المغرب الإسلامي اشتهرت عدّة محاريب على غرار محاريب رباط سوسة الذي بني عام(205هـ/ 821م)، ومحراب جامع بالقيروان الذي تمّ تشييده سنة(210هـ/826م) ومحراب جامع الزيتونة المبني عام(249هـ/864م). إنّ طريقة تصميم المحراب وأغراضه تفنّد دعوى إقتباسه عن محراب الكنيسة الذي يختلف عنه قلبا وقالبا، من حيث الوظيفة والشّكل.

- المشربيات والقباب والمقرنصات وعناصر أخرى:

من العناصر المعمارية التي أبدعها المسلمون المشربيات وهي حاجز خشبي يوضع في الجهة الخارجة للنافذة يمنع رؤية أصحاب الشارع لمن بداخل البيت، دون أن يمنع أهل البيت من النظر إلى الشارع، ودون منع النوافذ من إدخال قسط من التهوية والإضاءة، وأثبتت الحفريات وجود المشربيات في قصر الحير الشرقي على مقربة من الرصافة في سورية الذي يرجع تاريخه إلى سنة (111هـ/729م)، الأمر الذي ما يؤكّد خطأ المستشرق مارتن برجز الذي زعم أن المسلمين أخذوا فكرة المشربيات عن الصليبيين[2].

وتفنن المهندس والبناء المسلم في إنشاء عدّة تصاميم كالقباب التي كانت أحد أهمّ العناصر الهندسية التي استخدمت في الجوامع والأضرحة مثل قبة الصخرة التي بناها عبد الملك بن مروان سنة (692م/72هـ) وهي تمتاز عن القباب الرومانية والفارسية بعنقها المتسامي نحو السماء، ومن أقدم القباب الباقية إلى اليوم قبة الأخيضر بالعراق، أما أقدم القباب المغربية فهي قبة محراب مسجد القيروان(221هـ/836م)[3] . وتنوعت القباب الإسلامية فكان منها

---

[1] - أحمد السراج، المرجع السابق، ص57.

[2] - المرجع نفسه، ص290.

[3] - المرجع نفسه، ص52.

القباب النصف أسطوانية، والقبة التقاطعية، والقبة البيضاوية، والقبة المشطوفة، وقبة المرآن. ومن أجل الرّبط بين جدران الغرف أو الفراغات الخاصة بالبوابات والأبراج والسلالم والدهاليز والحمامات والصهاريج بدأت تظهر القباب المشيدة من الآجر محل القباب المشيدة من الخرسانة ومن الحجر، وهو الذي ظهر في عمارة الموحدين والناصريين في مملكة غرناطة، وهو أخف من الأقبية المبنية بالحجر[1].

وتميّز المعماري المسلم أيضا بطريقة تصميمه للأعمدة والتيجان مُستعملا في البدء مُخلَّفات الحضارات السابقة وذلك لانشغاله بالجهاد والفتوحات، ونلاحظ ذلك في جامع عمرو بالفسطاط الذي توجد به أعمدة مختلفة الطراز، لكنّه ومنذ المرحلة الأموية برزت الأعمدة والتيجان المختلفة عن سابقاتها[2].

ومن أهمّ العناصر الهندسية التي أوجدها المسلم المقرنصات* التي أخذ الفنان المسلم فكرتها من التحجر الطبيعي في الكهوف، وتظهر المقرنصات في عدّة مبان بالقيروان، والمقرنص يأتي على عدّة أنواع منها المقرنص المعقود الذي انتشر استخدامه في إفريقيا والأندلس، وأصبح المقرنص خطا هندسيا بعد أن كان كتلة كروية ثم أصبح له استعمال زخرفي بحت مثلما هو الشأن بالنسبة لقبة مسجد تلمسان وفي قبة أبي الغضنفر في القاهرة الفاطمية الذي أصبح يتكون من ثلاثة طوابق[3].

وممّا تميّزت به العمارة الإسلامية مداخل المدن، والتي كانت عميقة وشاهقة العلو، قد تتجاوز سطح المبنى نفسه، وتكون في قمة المدخل ربع كروية، ومحمولة على مقرنصات أو نصف قبة، وسعى العرب إلى تحديث البوابات الخاصة بالمدن التي تأسست على عهد الرومان، وهذا مُلاحظٌ بالنسبة لبوابة إشبيلية في سور قرمونة، وفي كل من بوابة جيان وبوابة سان بدر ودي

---

[1] – باسيليو بابون مالدونادو، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005م، ص272.

[2] – أحمد السراج، المرجع السابق، ص55.

* المقرنص هو الحنية الركنية التي توضع في كل ركن من أركان الحجرة للتدرج من المربع إلى الدائرة كي تحمل القبة.

[3] – المرجع نفسه، 2015، ص56.

قورية، إضافة إلى بوابات أخرى في يابرة وباجة في البرتغال، وقد احتفظت معظم البوابات بصندوق الحاجز الحديد أو الباب المتحرك الموروث من العصر الروماني[1].

ومن أجل تحميل السقف والقباب، ودعم الجدارات، وأيضا الربط بين الأعمدة أدخل المسلمون بعض عناصر التحميل مثل الأقواس والعقود والتي اختلفت حسب كلّ عصر ومصر، وحسب الإمكانات والذوق العام فبلغت أنواع الأقواس في العمارة الإسلامية اثنان وأربعين قوسا- اشتهر منها العقد المدبب ذو مركزين، وعقد نعل الفرس أو حدوة الحصان ويتألف من قطع دائرية أكبر من نصفها ويكثر في الأندلس والمغرب وفي جامع القيروان عقد بين الدبب ذي المركزين وحدوة الحصان[2]والعقد ذو الفصوص الذي يتألف من أقواس متتالية ويكثر هذا النوع في الأندلس كما في رواق قرطبة، والعقد المزين بالمقرنص مثل الموجود في قصر الحمراء وفي مدارس فاس والمرينية وأضرحة السلاطين في مراكش.

[1] - باسيليو بابون مالدونادو، المرجع السابق، ص5.

[2] - أحمد السراج، المرجع السابق، ص58.

لم تختص العمارة الإسلامية فقط بالاتّصال الحضاري والإبداع، فمن مميّزاتها أيضا ومحاسن صفاتها التنوّع، ونقصد بالتنوّع مسألتين مهمّتين هما تنوّع مواد البناء بحسب الأمكنة والأغراض وتعدّد المنشآت بحسب درجة التمدّن ومتطلّبات.

1- التنوّع في مواد البناء:

سُرعان ما انضوى تحب راية الإسلام فئام كثيرة من النّاس فمنهم الفرس والروم والسّود والأقباط والبربر والأتراك وغيرها من الأجناس التي تنوّعت ثقافاتها بتنوّع أقطارها وأمصارها، وانعكس ذلك على العمران خصوصا من حيث مواد البناء التي تنوّعت متأثرة بعدّة عوامل، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- العامل البيئي:

جعل العامل البيئي المادة البنائية تختلف من منطقة إلى أخرى حسب المادّة التي توفرها كل بيئة محلية، فيكثر اعتماد الحجر كمادة أولية في المناطق الجبلية والقريبة منها، بينما يكثر اعتماد الطين أو الآجر المشوي في المناطق التي تنعدم فيها الحجارة ويكثر وجود الطين.

ومن جهته فإن المعماري المسلم استطاع أن يكيّف تقنيات ووسائل تشييد عمارته مع عامل المناخ، وابتكر حلولا إنشائية ومعمارية كان لها دورها في التخفيف من قساوة المناخ الحار والجاف الذي يسود في أغلب بقاع العالم الإسلامي. لذلك تمّ استعمال الخشب للسقف وهو عازل للحرارة، وفي بعض المناطق تم استبدال الأعمدة الرخامية بجذور النخيل، واستخدمت جذور النخيل وغيرها كدعامات في سقوف المنازل والمساجد، بعد أن يتم شطرها إلى شطرين.

و في فترات لاحقة أصبح يعلو السقف سقفاً آخر مُحدَّب أو (جمالوني*)، يغطَّى من الخارج بطبقة من القرميد الأحمر أو الأخضر، وذلك لتجنب تسرب مياه الأمطار في المناطق الممطرة

* هو سقف مبني على شكل سنام مائل من طرفيه، لجأ إليه المعماريون في البلاد الممطرة أو المثلجة لتغطية عمائرهم، كما حدث في الجامع الأموي بدمشق وفي عمائر إيران وآسيا الصغرى، ثم اطلق على كل عنصر معماري له هذا الشكل المسنم في كافة الأبنية الدينية والمدنية وغيرها. محمد رزق، المرجع السابق، ص68.

في بلاد الشام وإفريقيا وإيران والأندلس[1]، واعتمد بعض البنائين على فنّ التغشية الجدارية بالجصّ المنقوش عبر القوالب الجاهزة، خصوصا في الفترة العباسية[2].

- العامل الدّيني:

ومن العوامل التي أثرت في تحديد نوعية مواد البناء العامل الديني المتمثّل في أحكام الشريعة الإسلامية والاجتهادات الفقهية التي كان لها دور في تحديد أنواع مواد البناء الواجب استعمالها، فالواجب أن تكون موادا طاهرة وغير مُحرّمة شرعا، ومتاحة عرفا من حجر أو طين أو خشب أو حديد أو جص وآجر، ولا يكون فيها إسرافٌ أو خروج عن القصد.

- العامل الوظيفي:

لم يخلو اختيار المسلمين لمواد البناء من تدبير حسن ورأي سديد، فقد تمّ توظيف كل نوع من أنواع المواد فيما يتلاءم معه من أنواع البنايات، فالحجارة استخدمت كأساسات للبيوت والقلاع والمباني العسكرية خاصة، وقد قام المسلم بقطع الأحجار البحرية المواجهة لرياح البحر ليبني منها الواجهات البحرية والقلاع والقصور وذلك لاعتيادها على الهواء الرطب فلا تتأثر به، بينما قُطعت الأحجار القبلية المواجهة لهواء الصَّحراء الجاف لأجل بناء الواجهات القبلية في العمائر الإسلامية، واستُخدم الطين في صناعة الطوب بعد خلطه بالقش المدروس مع الماء وصبه في قوالب تختلف أبعادها حسب الغاية المرادة منها[3] .

- العامل الزّمني:

وتنوّعت مواد البناء أيضا حسب العصور المتلاحقة، فالعمارة الإسلامية حاولت أن تتكيّف مع المتغيّرات، وتتطوّر من حيث طرق ومواد البناء لذلك نجد أنّ المباني الإسلامية في طليطلة كانت في الأوّل مشيدة من الحجارة، وقد حلَّ محل هذه المادة كلٌّ من الآجر والدّبش المصحوب بالجصّ في أواخر القرن العاشر[4]. فإذا كانت العمائر الإسلامية مثل مدينة قرطبة والزهراء التي ترجع إلى عصر الخلافة في الأندلس تتصف برصانة البناء وضخامته، والاعتماد

---

[1] – صلاح أحمد البهنسي، عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ص15.

[2] – أحمد السراج، المرجع السابق، ص22.

[3] – المرجع نفسه، ص49.

[4] – باسيليو، المرجع السابق، ص7.

على الحجر المنحوت، واستعمال الأعمدة الرخامية النحيلة التي ترتكز على قواعد حجرية مرصوصة طِبقا للموروث الروماني الذي استمرّ إلى أواخر الدّولة الأموية بالأندلس [1]، فإنّه ومع انتهاء عصر ملوك الطّوائف صارت الطابية والدبش والآجر هي مواد البناء الرئيسية، وربّما نجد في البناء الواحد عدّة عناصر مختلفة كما هو عليه الحال بالنِّسبة لقصر الحمراء الذي جمع بين الموروث المرابطي والموحدي والمريني والناصري، وكان يتمّ استخدام الطابية والآجر في المنشآت الحربية، وفي شرق الأندلس ظلت الطابية المادة المسيطرة وغاب الآجر وحلّ محله الدبش، أما في مقاطعة طليطلة فسيطرت أحزمة الدبش مع مداميك من الآجر [2].

- العامل السّكّاني:

ولأنّ العمران تختلف مواد بنائه أيضا بحسب ثراء ودرجة تحضّر السكّان، فإنّ المناطق المتحضرة والغنية مثل المدن الأندلسية خصوصا الحواضر السلطانية، إضافة إلى حواضر الملك في بلاد المغرب مثل المهدية في عهد العبيديين وبجاية الحماديّة ومراكش المرابطية، كانت فيها مواد البناء مختلفة عن مواد البناء في المدن الهامشية أو المناطق الداخلية البعيدة عن المراكز السلطانية، لذلك نجد أنّ المناطق الداخلية في كل من ليبيا والجزائر، وبصفة خاصة في واحة أوجلة وواحة غدامس في ليبيا وفي منطقة الزيبان، ومنطقة وادي ميزاب كان عمارتها بسيطة التكوين، فالمساجد كانت بسيطة مثل الجامع العتيق بتماسين الذي بني في القرن (7هـ/13م)، ومسجد عبد الله المغراوي الذي تمّ تشييده سنة (588هـ/1192م)[3]، وتمّ بناء هذه المساجد بالطوب واللبن، وتكونّت من بيت صلاة قليل العمق، يقوم على أعمدة من الخشب أو جذوع النخيل، كما أن صوامعها كانت قليلة الإرتفاع[4].

2- تعدد المنشآت:

خطت المدينة الإسلامية عدّة خطوات جادّة قبل أن تتضح ملامحها، فهي مولود جديد ترعرع في أحشاء الحضارة الإسلامية، ونما في حجرها، وكانت الدّولة الإسلامية بمثابة الأب

---

[1] -البهنسي، المرجع السابق، ص20.

[2] - باسيليو، المرجع السابق، ص286.

[3] - بن صغير حضري يمينة، نماذج من العمارة الدينية بقصري تقرت وتماسين، مجلّة آثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر02، عدد:15، 2016، صص289-308، ص291؛ ص293.

[4] -البهنسي، المرجع السابق، ص18.

الذي يُهذّب من طباع هذا المولود ويسهر على النفقة عليه وتطوير مهاراته، وسرعان ما تخلّصت من كلّ القيود العرفية ونفضت عنها ما علق بها من غبار البداوة لتشبّ عن الطّوق وتبرُزَ كظاهرة فريدة رغم اختلاف موقعها الجغرافي وتنوّع ساكنتها.

وواضحٌ أنّ بعض التفاصيل والجزئيات قد تختلف من مدينة إلى أخرى بحسب موقع المدينة ومناخها وعوامل تأسيسها أو المقاييس المقترنة بنشأتها[1]، فمدينة القيروان التي تأسّست منذ البداية كمعسكر للمسلمين وقاعدة للجند اعتمد فيها الأمراء تقسيم القطائع على القبائل المختلفة، لذلك سيكون تخطيطها مختلفا عن مدينة المهدية التي تأسست إثر عوامل سياسية معروفة حتّى تصير مدينة ملكيّة[2]. وسيختلف أيضا عن مدينة واسط التي بنيت سنة (87هـ/706م) التي كان سبب تأسيسها جغرافيا محضا، كي تتوسط بين الكوفة والبصرة حتّى يتمكّن والي العراق من الإشراف عليهما بسهولة[3].

وفي بدايات الفتح الإسلامي كان يسكنُ المدن الإسلامية المفتوحة أو المستحدثة طوائف الجند الذين كان غالبيتهم من العرب ثمّ لحقت بهم أسرهم، قبل أن يُسمح لمختلف القبائل العربية بالهجرة[4]. وكان استقرار الفاتحين وسط محيطٍ من الريف الوثني أو المسيحي، لكن سرعان ما انتهت هذه التناقضات بعدما تحّول السكّان الأصليون إلى الإسلام فزالت الحواجز بين المدن والريف.

---

[1] – هناك عدّة مقاييس اقترحها من كتب حول المدينة بصفة عامّة، أوتاريخ المدن الإسلامية خاصّة، فقالوا بوجود المقياس الانشائي حيثُ هناك المدن التلقائية التي تساعد المعطيات الجغرافية الملائمة مثل الثروة الفلاحية والموقع على بروزها وتطورها، لكنها تظل عرضة للتطور العشوائي، والمدن المستحدثة: يتولى إنشاءها أمير أو سلطان بطريقة إرادية، فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها، غير أن تطورها شابه المدن التلقائية، وهناك المقياس الزمني الذي يقسم المدينة إلى مدينة للأول– أي موروثة عن البيزنطيين أو الرومان أو حتى الفينيقيين، والتي شهدت مراحل تجديد وتعمير وانتقلت من مجرد قرية إلى حاضرة كبرى مثل تونس، ومدينة أنشأها العرب مثل القيروان. ينظر: محمّد حسن، المرجع السابق، ج1صص55-56.

[2] –يقول البكري عن المهدية: (وكان سبب بنيان عبيد الله للمهدية قيام ابي عبد الله وجماعة كتامة عليه وما حاولوه من خلعه وقتل أهل القيروان رجال كتامة، فكان ابتداؤه بالنظر فيها سنة 300هـ وكمل سورها سنة 305 وانتقل إليها سنة 308 في شوال، وكان لها أرباض كثيرة آهلة عامرة أقربها ربض زويلة، فيه السواق والحمامات، وربض الحمى كان مسكنا لأجناد إفريقية من العرب والبربر، قصر أبي سعيد ...إلى أن ولي إسماعيل بن القاسم سنة 334 فسار إلى القيروان محاربا لأبي يزيد واتخذ مدينة صبرة واستوطنها بعده ابنه معدّ وخلت أكثر أرباض المهدية وتهدّمت)). البكري، المصدر السابق، ص171.

[3] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 59.

[4] – المرجع نفسه، صص57-58.

ولأنّ المسلمين في البداية لم تكن لهم قوّة بحرية تمكّنهم من صدّ أي هجوم محتمل قد يشنّه الروم على السواحل، كانوا يتجنبون إقامة مدنهم في السَّواحل، وهو ما جاءت به وصية عمر بن الخطاب إلى عامله في مصر: (لا أحب أن تُنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف)، وهو ما دفع عمرو بن العاص إلى التحوّل عن الاسكندرية وبناء مدينة الفسطاط.

وبدأت المدن الإسلامية بدايات محتشمة، خصوصا المستحدثة منها التي كان يتمّ تحديد مساحاتها بطرق غير دقيقة، فمثلا اعتمد في تحديد مساحة مسجد الكوفة على رمية السهم، وذلك بأن يؤتى برام قوي، فيتوسط الموضع الذي اختير لبناء المسجد ثمّ يرمي بسهمه في الاتجاهات الأربعة، وبذلك ينشأ مساحة مُربعة الشكل ضلعها غلوتان* ويبدو أنه تقليد ساساني[1]. وتمّ اختيار مكان المسجد، ودار الإمارة في مواقع مهمّة يوجد بها بئر عذبة، وكان مجموع مساحة المدينة بعد انتهار عملية البناء ثلاثة عشر ألف ذراع[2].

ولما شيّد المسلمون مدناً مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان كانت عبارة عن عدد من الخيام والأكواخ التي بنيت من أعواد البوص والقصب ثم من اللّبن فيما بعد، وكان ارتفاع مساكن اللبن لا يزيد عن طابق واحد في بداية الأمر، خصوصا بعد أن أمر الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عامله عمرو بن العاص بهدم بناء مرتفع بناه أحد الجنود المسلمين وذلك كي لا تُكشف عورات المسلمين[3]. ومع رسوخ الحضارة في الدّويلات الإسلامية المتعاقبة بدأت تتضح ملامح المدينة الإسلامية بداية من العهد العبّاسي، وتعدّدت المنشآت التي سنقف عند أهمّها.

- الأسوار:

المتأمل في المدينة الإسلامية سيجد أنّها أحيطت مركزها بسور، هذا السور هو جدار عال ضخم يحيط بالبناء لحمايته، وتعلوه ممرّات تخصّص للحرّاس ورماة النّبال والسّهام. وقد حقق

---

* – الغلوة هي مسافة رمية السهم، وتعادل 240 متر، وبذلك يكون الضلع المربع 480 متر مربع.

[1] – هشام جعيط، المرجع السابق، ص93.

[2] –موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، صص31-33.

[3] – أحمد علي إسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، دار الثقافة، القاهرة، ط4، 1988، ص76.

العصر العباسي تطورا ملحوظا من حيث تصميم الأسوار كأسوار قصر الحير الغربي التي امتدّت إلى ما يقرب من ست كيلومترات، وأبراج مدينتي الرقة وبغداد التي تمّ تدعيمها بأبراج وبوابات منكسرة لم يعرفها اليونان ولا الرومان، وحتّى المنشآت الدينية مثل كنائس سورية كانت تحاط بالأسوار المبنية بالآجر والمطلية بالجص.

وفي القاهرة بنى جوهر الصقلي سورا باللبن حول المدينة الجديدة من جهاتها الأربع سنة (359هـ/970م)، ثم بنى بدر الجمالي سنة(470هـ/1170م) في الشمال والجنوب تتمّة للسور الأول، وفي عهد صلاح الدين الأيوبي قام بتوسعة أسوار القاهرة حتى أدخل فيها الفسطاط والعسكر والقطائع سنة (566هـ/1170م).

توجد بداخل الأسوار ممرات ترتبط ببعضها البعض عن طريق فتحات تساهم في إنارتها وتهويتها، كما تتوفر على أبراج مراقبة، والأبراج تتدعّم بدرجات للصعود إلى الممرات العلوية[1]، وكثيرا ما تكون هذه الأسوار هي تتمّة أو بناء على أنقاض أسوار قديمة من بناء الأوائل أي البيزنطيين أو الرومان، أو سور مُستحدث بناهُ المسلمون من حجارة مجلوبة من الجبال أو صخور البحار، أو مخلفات الأمم السابقة.

كانت الأسوار تنوب عن وعورة التضاريس، فهي تلعب دور الجبال والمرتفعات الشاهقة والمنحدرات الوعرة، أو الأودية والأنهار الكبيرة التي تُعيق حركة الغزاة الرّاغبين في اقتحام المدينة، وغالبا ما يلجأ إليها السلاطين أو سكان المدن عند تدهور الأوضاع والخوف من غارات الأعداء، لذلك استجاب علي بن يوسف أمير الدولة المرابطية لنصيحة أبي الوليد بن رشد، حين نصحه ببناء سور مراكش عقب خروج المهدي بن تومرت، وقال له: (لا يحل لك سكنى هذه المدينة دون سور) فبناه وأنفق في بنائه نحو سبعين ألف دينار كما أنفق ألفي دينار لإصلاح سور سبتة وبناء سور إشبيلية سنة (528هـ/1133م)[2].

وفي عهد الدولة الموحدية تمّ بناء سورٍ لمدينة تلمسان والذي إبتدأ بناءه السيد موسى بن يوسف العسري من أحفاد ابن عبد المومن بن علي سنة (566هـ/1170م)، وكمله السيد

---

[1] – مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، صص153-156.

[2] – ابن قطّان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1990، صص150-151؛ ص155؛ص 234.

أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المومن سنة (581هـ/1185م)، وذلك عندما استولى ابن غانية على بجاية والجزائر والمدية[1].

- البوابات:

البوّابات أو مداخل المدن هي عبارة عن أبواب شاهقة، والتي قد تتوفّر المدينة الواحدة على أكثر من باب فمثلا كان لمدينة القيروان أربعة عشر بابا، فيما كان لمدينة صبرة* خمسة أبواب[2]، أمّا تيهرت فلها أربعة أبواب هي باب الصف وباب المنازل وباب الأندلس وباب المواجن. ولها قصبة مشرفة على السوق يقال لها المعصومة[3]. ومدينة المهدية كان لها بابان من حديد[4] أمّا مدينة تلمسان فحظيت بخمسة أبواب خلال القرن الرابع الهجري وهي باب الجياد في الجنوب وباب العقبة شرقا أمّا شمالا فباب الحلوي والقرمدين بينما وُجد غربا باب كشوطة[5].

وتألّفت الأبواب من مصراع أو مصراعان أو أكثر وهو ما يغلق على الباب، وهذه المصاريع بسيطة متواضعة من خشب عادي ساذج بغير زخارف أو من خشب الساج أو الجوز المحفور أو المطعَّم بالعاج والصَّدف ونحوهما أو المغطى بالرقائق النحاسية أو الفضية أو الذهبية المكفتة أو المخرمة بأشكال نباتية وهندسية وكتابية. وتفنن المسلمون في عمل الأبواب الخشبية والمعدنية كما نبغوا في تزيين كل جزء من أجزائها حتى صارت هذه الأبواب تُحفا فنية، وكانت الأبواب مُزوّدة بالمفاتيح والأقفال والسقاطات والمطارق، ولأنّ هذه الأبواب عالية

---

[1]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ج1ص91.

*صبرة: مدينة قريبة من القيروان, بناها إسماعيل العبيدي, وسماها المنصورية سنة 337هـ, وبنى بها العبيديون قصر ملكهم, ولجأ إليها المعز بن باديس بعد أن غلبه العرب على القيروان, ثمّ تركها بسبب قلّة تحصينها. لتتحول إلى خراب حتى قال فيها ابن رشيق:

أصاب القيروان وساكنيها ودار الملك صبرة كل باس

فلا الدنيا التي بقيت بدنيا ولا الناس الذين بقوا بناس

ينظر: عبد الله بن محمّد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981، صص328-329؛ الحميري, المصدر السابق، ص354.

[2] -البكري، المصدر السابق، صص105-107

[3] - ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص50.

[4] -المصدر نفسه، صص111-112.

[5] -المصدر نفسه، صص164-165. يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص90.

وضخمة ويتعذر فتحها بشكل يومي، لذلك لجأ الصناع إلى عمل باب صغير في وسط هذه البوابات العظيمة للاستعمال اليومي، بينما يقتصر فتح البوابة الأمّ للجند عند خروجهم للقتال أو عند الضرورة، ويسمى هذا الباب الصغير بالخوخة[1].

- المسجد:

إنّ الداخل إلى المدينة سرعان ما يلمح صومعة المسجد، التي كانت أعلى بناء في المدينة، ليؤكّد قوّة الدين في تشكيل المجتمع المسلم وصياغته، فالمسجد يتوسّط المدينة كأنّه قطب رحاها ومركزها الذي تتولّدُ عنه وتنطلق منه، وهو أوّل ما يبدأ المسلمون ببنائه في المدن الجديدة، أما المدن المفتوحة فيشارك المسلمون النصارى في جزء من كنائسهم كما حدث في حمص حين أخذ المسلمون ربع كنيسة القديس يوحنا، وأيضا تمّ هذا الأمر في حلب ببلاد الشام وفي قرطبة ببلاد الأندلس. وليست الكنائس وحدها التي تمّ تحويلها أو تحويل جزء منها إلى مساجد فالمعابد الوثنية في العراق وإيران أيضا ربما حول بعضها الفاتحون إلى مساجد [2]، وفي سنة (85هـ/704م) عندما أسلم أهل المغرب الأقصى، حوّلوا المعابد التي كان قد بناها المشركون إلى القبلة وأدخلوا إليها المنابر[3]، وهو ما حدث أيضا في السّودان الغربي بمدينة جنّي التي أسلمت أيام السلطان كُنبُر وبني فيها المسجد مكان دار السّلطنة بعد تخريبها[4].

إنّ المسجد في المدن الكبرى يكون جامعا، ويتّسم بالاتّساع أفقيا، وله المكان المخصص للصلاة والذي يكون مسقّفا ثمّ يليه فناء فيه ميضأة تتوسّطه، وله أبواب تتوزّع عبر مختلف جوانبه، وكلما زاد عدد السكان دعت الحاجة إلى زيادة مساحته لتوسعته كي يسع لصلاة الجمعة[5]، مثل مسجد عمرو بالفسطاط الذي حظي بزيادة عام(53هـ/673م) بعد أن

---

[1] – محمّد رزق، المرجع السابق، صص23-24؛ ص103.

[2] –ك.كريزويل، المرجع السابق، ص21؛ أحمد علي إسماعيل، المرجع السابق، ص80.

[3] – ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص71.

[4] – عبد الرحمن السعدي، تاريخ السّودان، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،2012، صص84-114؛ إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة لوطنية للكتاب، الجزائر، 1983،صص323-324.

[5] – باسيليو، المرجع السابق، ص13.

شكى الناس ضيق المسجد فسارع مسلمة بن مخلد والي مصر إلى الزيادة فيه وبناء مئذنته الشاهقة وصوامعه الأربعة[1].

وكلّ زيادة تحاول أن تنفرد بطابعها المعماري وطرازها في الزخرفة والنحت والتزيين، وبذلك تحوّلت جوامع المدن الإسلامية إلى لوحة فيها ثراء زخرفي وتنوع معماري يجمع بين نسيم الماضي وعبق الحاضر، ويزاوج بين القيم الزهدية والمتطلبات الجمالية.

وقد أبدى كثير من علماء الغرب إعجابهم بعمارة المساجد الإسلامية فيقول جاستون فييت (**Gaston wiet**) الذي عاش عمره كله يدرس آثار الإسلام وفنونه في كتابه عن مساجد القاهرة: (المسجد هو في العادة بناء لا تتساوى أضلاعه...فإنّ اتساعه أكبر من عمقه، والمؤمنون الذين يصلون فيه يقفون صفوفا جنبا إلى جنب، والبناء محاط بسور تختلف ارتفاعات أجزائه بعضها عن بعض، وقد تكون له نوافذ وقد لا تكون، فإذا وجدت نوافذ كانت وظيفتها زخرفية خالصة، لأن إضاءة المسجد تتأتى عن طريق صحن مكشوف تحيط به بوائك* تقوم على أعمدة أو دعامات، والبوائك التي تتجه أروقتها صوب مكة أعمق دائما من بوائك النواحي الثلاث الأخرى[2]).

ويرى مانويل جوميث مورينو أنّ المسجد رغم كونه صرحا معماريا مهمّا فإنّه ليس على شاكلة الكنيسة فهو يسعى إلى إزالة كلّ ما يشغل المسلم عن عبادة ربّه من رسوم وزخارف،

---

[1] – ك.كريزويل، المرجع السابق، ص29.

* البوائك: جمع بائكة أو باكية أو البايكة، وهي سلسلة من العقود أو القناطر أو العيون المتتالية في صف واحد ترتكز على عدة دعائم أو أعمدة في خط مستقيم على أبعاد متساوية، وقد استخدمت في المساجد والخانقاوات والمدارس والقصور وغيرها للدلالة على صفوف الأعمدة والعقود التي تحصر الأروقة أو البلاطات أو المجازات القاطعة أو الاساكيب فيما بينها، وغالبا ما تكون موازية لجدار القبلة أو متعامدة عليه أو محيطة بالصحون المكشوفة أو المغطاة، مرتكزة على أعمدة حجرية أو رخامية ذات أبدان أسطوانية أو مكضلعة أو حلزونية، أو على دعامات مربعة أو مستطيلة، واستعملت كدعامات للسقوف من أجل استقبال أكبر قدر من التهوية والإضاءة، وظهرت البوائك المتعامدة على جدار القبلة فيما عرف بالمجاز أو الأسكوب في المسجد الأقصى بالقدس اتلشريف، خلال إصلاحات الخليفة المهدي سنة 163هـ/780م، وفي جامع القيروان عندما أعاد زيادة الله بناءه سنة 222هـ/836م وغيرهما، محمّد رزق، المرجع السابق، ص32-33.

[2] – حسين مؤنس، المرجع السابق، ص45.

وحتّى لا يكون العلّو إلا لله سبحانه، ابتعد المسلمون عن البناء العمودي، حتّى يتساوى النّاس في وقوفهم بين يدي ربّهم سبحانه[1].

ولم يكن المسجد فقط دار عبادة تُقام فيه الصلوات، بل كان ينوب عن مؤسّسات كثيرة، فهو مسجد ودار قضاء ومنبر دعاية ومدرسة إبتدائية بل وجامعة متعددة الاختصاصات، ومكان لجمع التبرعات وفض الخصومات وتعبئة النّاس. ولأهميته كانت تُقام دار الإمارة قريبا من المسجد الجامع، وغالبا ما يتمّ الربط بينها وبين المسجد الجامع بساباط يُخصّص للسلطان أو الأمير في صلوات الجمع والأعياد[2].

ولم تكن كلّ مساجد المسلمين مساجدا جامعة فقد وجدت مساجد بسيطة تشبه المصليات في القرى أو بداخل التجمعات العمرانية التي نشأت بجوار المدن الكبرى. فلم تكن عمارة هذا النوع من المساجد ذات أهمية بالغة لكونها أنشئت لغرض الصّلاة وليس لتكون علامة على قوّة السّلطان وأبّهة الدّولة.

- الشوارع:

إنّ الشارع في الإسلام له أحكامه الخاصّة، وشوارع المدينة الإسلامية تنقسم إلى شوارع كبرى وأزقّة ضيقة، وتتفرّع الشوارع الكبرى عن أبواب المساجد الجامعة، بينما تربط الأزقةُ بين الشوارع الرئيسة من جهة وبين الأحياء من جهة أخرى.

يُطلّ كل باب من أبواب المسجد على شارع من الشوارع الرّئيسة، وهي شوارع نابضة بالحياة، فيها سوق المدينة الذي تشكّله مجموعة من الدكاكين المتراصّة والمتقابلة، وتتسم الشوارع الرّئيسة بالاتّساع بقدر يكفي مرور دابتيين محمّلتين بالأثقال، بينما الشّوارع الفرعيّة والأزقّة اتّسمت بالضّيق وكثرة الإلتواءات، لكنّ البيوت والمنازل كانت واسعة ويوجد فيها أفنية وربّما حدائق ساهمت في تهوية البيوت وإضاءتها.

وحرصت السلطة على منع أي تشويه لمنظر المدينة أو اعتداء على شوارعها ومرافقها، إذْ كان هناك محتسبون يمنعون إقامة أيَّ بناء يعترض الشارع حتى لو كان مسجدا، و يمنع أيضا

---

[1] – مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر المرابطين وفنون المستعربين، ترجمة: لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص10.

[2] – محمّد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991، ص226.

وجود بروزات واضحة في المباني أو مصاطب تؤثر على سعة الطريق أوتضايق المارة، ويؤمر بإزالة مخلفات المطر والطين، ويُمنع القصابون من الذبح في الشوارع، وأيضا ألزم رجال الحسبة السكّان بإزالة المباني المتداعية والآيلة للسقوط[1]. وانتشرت السّباطات في الشوارع الإسلامية كي تقي المارّة من وهج الشمس وحرّها*، فقد كان بين قصر قرطبة ومسجدها ساباط، وآخر بين قصر الزهراء ومسجدها، كما تم استعمال البروزات والأجنحة في الطوابق لتوفير الظلال[2].

ولا ننكر أنّ ضيق الشوارع في المدينة الإسلامية وأحيانا سوء تخطيطها وكثرة الالتواءات قد أضرّت بجمالها، لكن ينبغي أن لا ننسى أنّ الشوارع في المدينة الإسلامية مرتبطة بنشأة المدينة ومتأثرة بالعوامل الإنسانية والدينية التي تعكس حريّة الفرد التي عاشها في المجتمع الإسلامي، وما يصاحب الحياة الإسلامية من علاقات وقوانين كالميراث والقسمة والبيع والشراء وعلاقة التجاور، إلى غير ذلك من الأمور التي تنعكس بصورة قوية على هيئة الشوارع الخاصة والبيوت والأسواق، تلك النوعية التي تتغير من فترة إلى أخرى، وتتفرع جيلا بعد جيل في إطار المعاملات والظروف التي تحكم المجتمع الإسلامي، وربّما استغلّ ذوو النّفوذ فترات ضعف الدّولة في الاعتداء على الشوارع وذلك بسبب النزعة البدوية التي ربّما تظهر في سلوكيات بعض السّاكنة من تغليب المصالح الخاصة ولو على حساب المرفق العامّ من خلال أولوية البيت على الطريق والمساحات العامّة وهو ما أفرز مثل هذه المظاهر التي شوهت منظر المدينة وغطت على محاسنه [3].

- السوق-القيسارية-:

كان السوق أو ما يعرف بالقيسارية في المدينة الإسلامية أحد أهمّ المرافق الذي به تُقاس درجة تمدّنها، وهو في الحقيقة عبارة عن أسواق مجتمعة في سوق واحد، فتجد سوق العطارين وسوق النساخين وسوق النجارين وسوق الكتان وغيرها من الأسواق، والتي يتمّ تنظيمها وفق

---

[1] - أحمد علي إسماعيل، المرجع السابق، ص72.

* - السّاباط ممر مسقوف يربط بين دارين أو جدارين.

[2] - يحيى وزيري، المرجع السابق، صص100-101.

[3] - محمّد عبد الستار المرجع السابق، ص34؛ هشام جعيط، المرجع السابق، ص145.

قاعدة لا ضرر ولا ضرار، وحسب ما تتطلبه كلّ صنعة، فتتجاور الأسواق حسب اختصاصاتها، فسوق الكتان بجوار سوق الخياطين، وسوق الطعام قريبة من الفرانين، وسوق الحرير لا يُحاذيها فرّان أو حدّاد، فكأنّنا أمام سياسة الصناعات التكميلية التي تنتهجها الدول الحديثة.

إنّ المدينة الإسلامية حاولت جاهدة أن تحمي ساكنتها، لذلك نجد أنّها حرصت على تخفيف وهج الشمس صيفا وزيادة الظل، فكان للشوارع التجارية سقائف تقي الدكاكين من الشمس والمطر معا، وتمّ تسقيف الشوارع أحيانا من خلال إبراز الواجهات لحماية المارة والسلع كالحرير.

ويقوم على كلّ سوق من هذه الأسواق نقيبٌ هو بمثابة شيخ الصِّناعة والحرفة، يمارس سلطته في فضّ الخصومات ومكافحة الغش وحماية الزّبون والبائع من أي شطط أو ظلم. واشتهرت بعض المدن بأسواق بعض السلع ففي بلاد المغرب الإسلامي اشتهر سوق الرقيق بمدينة المهدية، وكان يختص ببيع الجواري الروميات، كما ذاع صيت سوق الغزل بمدينة سوسة*.

وفي المغرب الأوسط وخلال الفترة الرستمية اشتهر سوق ابن وردة وغيره من الأسواق، وكانت نفوسة تشرف على أسواق المدينة، فإن رأوا قصابا ينفخ شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه[1].

وفي الفترة الزيانية كان سوق القيسارية الذي قام السلطان أبو حمو موسى الأول بتأسيسه يقع في مساحة كبيرة بوسط المدينة، بالقرب من قصر المشور، يتكون من مجموعة من البنايات بها دكاكين ومحلات تجارية، وورشات صناعية و مخازن، وفي بعض الأحيان توجد مساكن فوق

* سوسة: مدينة تونسية تقع غرب مدينة تونس, وهي عتيقة بناها الرومان على بعد نحو خمسة وعشرين ميلا من البحر المتوسط, وثمانين ميلا أو أكثر بقليل من تونس. حسن الوزان، ج2ص66.

[1] – ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمّد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ص76.

الحوانيت بها فنادق يؤمها التجار الأجانب، وتتميز سوق القيصارية بسعة شوارعها وأروقتها المغطاة، ولا تزال هذه السوق قائمة إلى يومنا هذا و يقصدها سكان تلمسان وغيرهم[1].

- البيوت:

أخذت البيوت العربية عدّة أسماء اختلفت بحسب مادّتها، فمثلا الخباء هو بيت مصنوع من الصوف، والنجاد من الوبر، والفسطاط من الشعر، والقشع من الجلود، والطراف من الأدم، والحظيرة من الأغصان والأقنة من الحجر، والشدة من الطين، وكان منها البيت المسطح المعروف بالأطم، والعالي المعروف بالصرح، والمربع المسمى كعبة، والمطول المرتفع المعروف بالمشيد، والمطول المعقود يسمى أزجا، والمخطط المسمى بالأبلق.

و حرص المعماري العربي أن يحمي بيته من الحر صيفا والبرد شتاء ولذلك جعله على هيئة مربع أو مستطيل وزع حجراته حول صحن أوسط مكشوف، ثمّ عمل فيه الإيوان خلال العصر العباسي وفتح عليه غرفه وحجراته، وكيَّفه مع المناخ بإتقان تصميمه فتحكم في اختيار مواده، فعمل من اللبن في أكثر البلدان لقدرته على عزل الحرارة والرطوبة وقلة تكاليفه، وبنى بالحجر في بلاد الشام، واستخدم الآجر في شبه الجزيرة العربية ومصر، وعقدت أسقف البيوت وقببت بهذه المواد[2].

ونلاحظّ أنّ البيوت في المدينة الإسلامية أو حتى القرية تخضع لمجموعة من المعايير الهندسية المستمدة من روح التشريع الإسلامي، وأول هذه المعايير طريقة البناء الأفقي للمسكن، بمعنى منع المنازل العمودية أي ذات الطوابق، لأنّ ذلك كان يعد مطية لكشف العورات، ولم يكن عدد الساكنة يدفعهم إلى العمارة العمودية، والبيت الواسع من الأمور المحببة عند المسلمين لما جاء من الثناء على البيت الواسع وفق عدّة أحاديث نبوية ثابتة[3]. وحرصا من أصحاب البيوت على حرمة بيوتهم كانوا يصنعون بابين لهذه البيوت المنفتحة على الشوارع، باب داخلي ينفتح على الفناء الداخلي للمنزل، وباب خارجي ينفتح مباشرة على الشارع وبين

---

[1] – عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ، ثقافية)، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج1صص135-136.

[2] – محمّد رزق، المرجع السابق، صص38-39.

[3] – محمّد عليلي، المرجع السابق، ص61.

البابين ممر أو بهو منكسر على شكل حرف لام يسمى دهليزا، وتصميم البيت بهذا الشكل الهندسي كفيل بجعل المار على الشارع لا يتبين ما بداخل البيت.

وكان فناء البيت يضمن التهوية والإضاءة، وتطلّ عليه نوافذ الغرف، فيما يتمّ تزويد النوافذ المطلة على الشوارع بالمشربيات. وكان الفناء مكان اجتماع العائلة في فصل الصيف وفي الأيام الحارّة، وتقام فيه الأعراس والمآتم والولائم، وتوجد به بعض الأشجار، وأمّا الغرف فتكون متّسعة ومتقابلة يفصل بينها رواق ضيق ممتد طولا.

- الأرباض:

كان لكلّ مدينة مجال حيوي خارجي هو الحاجز بينها وبين البوادي والقرى والأرياف، فيه تُنصب الأسواق خارج المدينة خصوصا الأسواق الأسبوعية، ومنه تنطلق الجيوش وقوافل التجارة والسفر، وكثيرا ما يتمّ إحاطة المدينة بحزام ريفي مُحاذي لمحيطها من خلال الرياض الأميرية مثل ما فعله أبو زكريا الحفصي (627هـ/1229م) الذي كثرت في زمنه الغراسات بفعل الهجرة الأندلسية[1].

ولعلّ ما يعاب على أكثر المدن الإسلامية أنّ تخطيطها لم يكن يحمل رؤية مستقبلية، بقدر ما كان استجابة لظروف آنية، فضيق المدينة عن ساكنتها جعل ضواحيها سرعان ما تنتشر فيها العمارة لكن بطريقة غير منتظمة، وشيئا فشيئا تلتحم تلك البنايات مع المدينة الأم، ولم تسلم من هذه الظاهرة حتّى كبريات المدن السلطانية التي كان الهدف منها تخليد أسماء مؤسسيها على غرار مدن بغداد وقرطبة والقيروان وفاس والمهدية والقاهرة وبجاية [2].

إنّ هذه المدن حين نمت سرعان ما التحمت بأكثر من نواة عمرانية نشأت في ضاحيتها وأرباضها، وكانت كل نواة منها تمثل محلة أو معسكرا حربيا نمت حوله محلة عمرانية مستقلة في البداية، فبغداد مدينة السلام، تحيط بها الحربية في الشمال والكرخ ذات الصبغة التجارية في الجنوب تقابل الرصافة عبر دجلة، ومن هنا تشبه أحيانا بالمدائن الساسانية فهي مدينة المدن [3].

---

[1] – محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص73؛ ابن قنفذ، الفارسية، ص106.

[2] – ابن خلدون، المقدّمة، ج2 ص9.

[3] – أحمد علي إسماعيل، المرجع السابق، ص77.

ومن المدن التي استبحرت في العمران إلى أن غدت قصبةً مدينةُ تيهرت، التي وصفها المقدسي ببلخ المغرب التي كان بها جامعان، وكانت مساكنها مبنية بالحجارة والجيل، وقريب من مسجديها الأسواق، وكان لها أربع دروب على حسب أبوابها، باب مجانة قبالة درب المعصومة، وأبواب قابلة درب حارة القفيرو درب البساتين، وقد اتّصلت بها نواة عمرانية كانت تُسمّى الرُها لكنّها خربت [1].

- مرافق أخرى:

كانت المرافق في المدينة الإسلامية كثيرة، تلبي حاجيات السكان بشتّى أنواعهم، وليست مرافق تكرّس القِيم الطبقيّة، وتقسّم السكّان إلى عائلات آرستقراطيّة وأخرى من الفئام المعدمة التي لا تتمتّع بالمرافق المنجزة. ففضلا عن المسجد الذي هو دار عبادة، والأسواق التي هي مقصد التجار، كانت توجد أيضا الحمامات التي يقصدها النّاس بشتّى أطيافهم خلافا للحمّام الروماني واليوناني التي كانت حمّامات نخبوية أو آرستقراطية، وكانت توجد فوق بعض الدّكاكين الفنادقُ التي يقصدها التجّار وينزل فيها المسافرون[2]. وتزوّدت المدن بشبكات الصرف على أعلى مستوى، وحرص المسلمون على عدم مجاروتها للآبار حتى لا تتلوث المياه الجوفية وتفنّنوا في شقّ القنوات لجلب مياه الأنهار والعيون والوديان وبناء المواجل لتجميع مياه الأمطار، وشقّ قنوات أخرى للتخلّص من مياه الصرف[3].

وكثرت المدارس في المدن الإسلامية ففي تلمسان مثلا انتشرت عدّة مدارس خلال العهد الزياني، مثل مدرسة ابني الإمام التي بناها السلطان أبو حمو بن أبي سعيد للشيخين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني الإمام، وبناها داخل باب كشوطة[4]والمدرسة البوعنانية التي شيدها أبو الحسن المريني بمكناس وأتمها أبو عنان(751هـ/1350م) فنسبت إليه، كما

[1] -المقدسي، المصدر السابق، صص228-229.

[2] -البكري، المصدر السابق، ص19.

[3] - يحي وزيري، المرجع السابق، ص103.

[4] - يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص130.

شيد أبو عنان مدرسة بسلا التي تعرف بالمدرسة العجيبة، والمدرسة المتوكلية بالطالعة الكبرى من فاس المعروفة بالبوعنانية سنة (756هـ/1355م) التي تعتبر ذروة الفن المعماري المريني[1].

وانتشرت البيمارستانات* في بلاد الإسلام ففي الغرب الإسلامي مثلا اشتهر بمارستان غرناطة، وذكر ابن الخطيب البيمارستان الأعظم بأنه حسنة هذه البلاد، وأنه أول بيمارستان يقام في بلاد الأندلس، وبمدينة مراكش بنى المنصور الموحدي بيمارستانا فاختار له مكانا فسيحا من أحسن المواضع في مراكش، ثم أمر البنائين بإتقان بنائه، فجعلوا فيه النقوش والزخارف ما زاد على الحد المطلوب، وغرس فيه من جميع أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، وأيضا كان بيمارستان فاس يقصده المرضى ويُحجر فيه على المجانين، وكان فيها عدة بيمارستانات يسكن فيها الغرباء لمدة ثلاثة أيام [2].

وأيضا تمّ تزويد المدن الساحلية بدور الصناعة مثل مدينة سوسة ومدينة تونس[3]. ومدينة بجاية التي كانت جبالها تزوّدها بالخشب لصناعة القطائع البحرية وسفن الصيد[4]. ومن أجل الحيطة توزّعت حول المدن الساحلية عدّة محارس ورباطات مثل محارس مدينة سوسة[5] و محرس المنستير[6].

أمّا المؤسسات القضائية فلم تكن في حاجة إلى بنايات شاهقة تخصص لها، فكان القضاة في الغالب يقضون بين النّاس في المساجد أو في بيوتهم بمعية الكتاب والعدول والموثقين وغيرهم، وفي العهد الحفصي كانوا يقضون في بيوتهم وقلما يقضون في المسجد، وفي القيروان تم تخصيص بناية عمومية لجلسات القاضي ومسكنه، وكان قاضي الجماعة عيسى الغبريني أيام

---

[1] – تمليكشت هجيرة، مدرسة السلطان أبي عنان فارس المتوكل على الله بمدينة فاس، مجلة الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر02، عدد:13، 2015، صص119-137، ص121.

* البيمارستان: كلمة فارسية مكونة من مقطعين، بيمار بمعنى مريض أو ضعيف أو عليل، وستان بمعنى بيت أو دار أو محل، وبذلك يكون معناها هو بيت المرضى أو دار المرض التي تعرف اليوم بالمستشفى، وعمل أول بيمارستان في العمارة الإسلامية في مصر على عهد ابن طولون سنة 259-261هـ/872-874م، مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، ص41.

[2] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، صص35-36.

[3] –اليعقوبي، المصدر السابق، ص188.

[4] – مُحَمَّد بن مُحَمَّد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، مج1، ص260.

[5] – البكري، المصدر السابق، ص119.

[6] – المصدر نفسه، ص120.

الذولة الحفصية يعقد جلسات محكمته في بهو دريبة في الدار الصغيرة المحبسة التي كان يسكن فيها[1].

إنّ المدينة الإسلامية كانت في حاجة إلى جهاز يسهرُ على الحفاظ عليها وحماية مرافقها ويقوم بتنظيم المجتمع بداخلها، وهو الجهاز الذي تجلّى في رجال الحسبة، وكانت كتب الحسبة هي المرجع والقانون الذي يستمدّ منه المحتسبون معلوماتهم، فسهر رجال الحسبة على حماية الطّرقات من الجلوس فيها أو تضييقها بإخراج مصطبة دكان عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، وكذا منع إخراج الفواصل والأجنحة وغرس الأشجار ونصب الدكّة، في الطريق الضيقة أو إحياؤها والبناء عليها، أو قطعها من خلال ربط الدواب أو تنجيسها بطرح الكناسة أو إرسال ماء الصرف على الطريق الضيقة ، أو ترك مياه المطر والأوحال في الطرق من غير كسح [2]. وحثّت كتب الحسبة على تكثير العمارة واعتبرته من أركان الملك، بعد نصب الوزير وإقامة الشريعة وإعداد الجند وحفظ المال[3].

وهناك كتب اختصت بمسائل البنيان ككتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي وكتاب الجدار لعيسى بن موسى التطيلي وغيرهما، زودتنا بتفصيلات أكثر تتعلق بتخطيط وإنشاء الوحدات المعمارية الدينية على وجه الخصوص، فمنها ما يتعرض للشروط الحاكمة لبناء الميضآت وبيوت الخلاء ومنها ما يتعلق بحكم بناء المساجد وطهارة مواد البناء، وتناسبها في النوع والمقدار لنوع المبني وأشارت إلى إتقان البناء ومواصفاته المطلوبة، ومواصفات مواد البناء المرغوب فيها عند التعاقد على إنشاء بناء معين، والمقادير والمقاييس المعتبرة في المواد المختلفة المستخدمة، وكمية الماء المطلوبة أثناء الخلط، ووجوب تحديد المواصفات التي يريدها صاحب البناء في منشآته، وتحديد مقاييسها المختلفة طولا وعرضا وارتفاعا ونوعية مادة البناء التي تبنى بها سواء كانت طينا أو لبنا أو آجرا، وكذلك صفة البناء من حيث كونه منضدا أو مجوفا أو

[1] -روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، بيروت، لبنان، ج2ص128.

[2] -ابن الإخوة القرشي، المصدر السابق، صص135-136

[3] - محمّد عبد الستار ، المرجع السابق، ص23-42.

مسنما، ونبّهت أيضا إلى ضرورة تدخل السلطة وتعيينها لخبراء في البناء وتشديد الرقابة عليهم ومنع طرق الغش والحيل بأخذ المواثيق وغيرها.

وفي سبيل عدم الإضرار بالآخرين تمّ منع الارتفاع بالبناء على الجدران، وعدم فتح نوافذ تطل على حريمهم، ومنع إضرار الفرانين والدباغين وغيرهم بجيرانهم، وتحدّثت كتب الحسبة وغيرها عن الجدار المشترك، وحق المرور والارتفاق بالطرق والشوارع، وحكم الجدار المائل، ومسائل هدم الجدار المشترك ومسائل إحياء الموات، والتصرفات في بيع البناء، وتأجير المباني.

اختصّت العمارة الإسلامية بمراعاة القيم الجمالية والروحية والأخلاقية، وهو ما يؤكّد أنّ الحضارة الإسلامية هي حضارة التوازن بين الرّوح والجسد، وتجمع بين العلم والأخلاق.

أ- التميّز في الفنون والجماليات:

إنّ الجمال والتحسينيات من المقاصد التي حرصت الشريعة الإسلامية على حفظها، وتجلّى ذلك في مجال العمران من خلال الرسومات والزخارف وطرق النقش والتلوين والتزيين التي أضافت قيمة جمالية وإبداعية على العمائر الإسلامية.

ولأنّ الإسلام دينٌ حيٌّ، يترك بصمته على سائر ميادين الحياة، فقد كانت الزخرفة الإسلامية متأثّرة بنصوص الوحي الناهية عن تصوير الكائنات الحية، لذلك اعتمد الفنان المسلم على أسلوب اللامحاكاة، كما أنّ حرمة استعمال الذّهب والحرير دفعت بالفنان المسلم إلى إيجاد بدائل تجوز شرعا، فهرع إلى استخدام الخزف المذهب بالأكاسيد التي تُحرق وتتحول للون ذهبي أو بني أو أحمر أو زيتوني، و أيضا تمّت زخرفة المحاريب بالخشب والصلصال المزجج أو الجص، وبذلك تمكّن الفنّ الإسلامي من تحويل الخسيس إلى نفيس، ولم يعرف الفن الإسلامي التّجسيم والبروز حيثُ اكتفى بالرسومات الثنائية الأبعاد[1].

وتعددت عناصر الزخرفة الإسلامية فوُجدت العناصر النباتية التي تُسمى بالأرابسك* التي سخّر فيها الفنان صور العنب وورق الأكانثوس والنخيل والصنوبر والسوسن وغيرها من النباتات، والتي قد تخرج الغصون من جذع شجرة أو ساق أو إناء ملتوية متتابعة، وأيضا هناك العناصر الهندسية المتمثّلة في الدوائر المتماسة والمتجاورة والجدائل.

---

[1] - أحمد السراج، المرجع السابق، ص61؛ محروق إسماعيل، المرجع السابق، ص27.

* -الأرابسك: عرف عند مؤرخي الفنون بعدة أسماء أهمها الرقش والتوشيح والعربسة، فهو طراز زخرفي ابتدعه العرب، من خلال الزخارف النباتية المتشابكة والأغصان المتقاطعة والأزهار المتدلية، التي لا يعرف الناظر إليها ذبداية ولا نهاية، والإسبان لا زالوا يستخدمون لهذا النوع من الزخرفة كلمة عربية( **Tawriq**) المشتقة من أوراق الأشجار، وينقسم الأرابسك إلى قسمين أولهما نباتي يعتمد على الأغصان الدائرية والملتوية والمجردة ويسمى بالتوريسق والتشجير أو التزهير، وثانيهما هندسي يعتمد على الخطوط المستقيمة والزوايا القائمة والمنحنية ويسمى أحيانا بالتسطير وغالبا ما تشترك هذه الأقسام إضافة إلى الزخارف الكتابية لتؤلف عملا فنيا متكاملا تتعانق عناصره المختلفة. ويغلب على الظن أن هذا النوع بدأ في الظهور خلال العصر العباسي في القرن 3هـ/9م وازدهر في القرن 4هـ/10م على عهد الفاطميين والسلاجقة والمغاربة، ووصلت زخارف الأرابيسك إلى الفن الأوربي على يد الرسام فرانشيسكودي بلاغرينو الذي توفي في فرنسا 960هـ/1552م، وأيضا من خلال رسوم ليناردو دافنشي. مُحَمَّد رزق، المرجع السابق، صص12-14.

إنّ هذا النّوع من الفنون يؤكّد سُموّ العقل العربي، وتأثير الفكر الإسلامي الذي زاوج بين الروح والمادّة، والذي يؤمن بالعالم العلوي وتأثيراته، وبالسرمدية بخلاف الفن المحاكي للواقع الذي يعتمد على التجسيد فيحبس العقل في التفاصل، كما تكشف الرسومات التي تعود إلى الفترتين الأموية والعباسية عن التأثيرات الساسانية وقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة مدى صفاء مخيّلة الفنان المسلم وسعة أفقه وهو يتخيّل الأسود المجنحة والحيوانات الناطقة والحيوانات التي تتفرع من نباتات، وأيضا نجد التأثيرات الصوفية في الرسومات والزخارف الهندسية، ونقصد هنا التصوف القائل بوحدة الوجود، فالأشكال الهندسية تتشابك وتتوالد ومع ذلك تُشكّل وحدة تنضوي تحتها تلك الأشكال من دوائر وخطوط وغيرها.

واستطاع الفنان المسلم أن يبدع في الزخرفة بالخطوط العربية فرسم ألواحا رائعة، كما أنّ تأمّلاته في الجزء العلوي من الكون جعلته يختار الألوان السماوية التي تسلب الأشياء مادتها كالذهبي والأخضر والأزرق وهي ألوان الماء والسماء والسهول والشمس، وقليلا ما يستخدم الأحمر والبني والأصفر [1].

ورغم النهي عن تزيين المساجد فلم يلتزم الفنان المسلم كليّا بتلك القيود، فيكفي أن تتفحص مسجد القيروان والمسجد الجامع بمدينة سوسة، ومسجد الزيتونة، ومسجد السيدة بالمنستير، وبعض الزخارف من المهدية حتى ترى الكثير من الطرق الزخرفية الجدارية على شاكلة الزخارف المدهونة، و الزخارف المحفورة، و زخرفة القراميد[2].

ب- المحافظة على القيم الروحية والأخلاقية:

إنّ العمارة الإسلامية ليست مادية بحتة، فهي تتّسم بطابعها الإنساني، ترعى الإنسان باعتباره روح وجسد، لذلك راعت القيم الروحية والأخلاقية وكذا الصحيّة، فكانت نصوص الكتاب والسنّة وفتاوي الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من أئمة المذاهب الفقهية هي مرجع المعماري المسلم، فحديث نفي الضّرر "لا ضرر ولا ضرار" كان هو القاعدة العامّة التي احتكم إليها في مسائل العلاقات بين المواطن مع جيرانه، وكذا بين المواطن و الدّولة ومنشآتها

[1] - أحمد السراج، المرجع السابق، صص60-65.

[2] - محمّد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، ص73.

العامّة، فساهم هذا الحديث في حل النزاعات حول الجدار المشترك والمائل والسَّقف المشترك وإحياء الموات وممارسة الأنشطة التي ربّما تضر بالسّاكنة والعمران على حدّ سواء[1].

لقد منع الفقهاء أن يتصرف المالك في ملكه إذا أضر بجاره، وهو قول ينسب لأحمد في أحد أقواله وكذا إلى الإمام مالك، كأن يفتح نافذة في بناءه العالي وهي مشرفة على بناء جاره ولا يسترها، وأن يحفر الرجل بئرا قرب بئر جاره فيذهب ماؤها فإن الحاكم يأمره بردمها في مذهب مالك ويعتمدون في ذلك على حديث لا تضاروا في الحفر، وذلك أن يحفر الرجل إلى جنب الرجل ليذهب بماءه [2]، وهكذا نجد أن الفقهاء أفتوا بإزالة كلّ أنواع الضّرر، مثل الضرر البصري الذي يكون نتيجة اطّلاع الجار أو غيره على محارم جاره، كأن يفتح نافذة ينظر من خلالها إلى بيت جاره أو سطحه أو فناءه، أمّا الضرر السمعي مثل اتخاذ المساكن كمحلات للحدادة أو إسطبلات ونحوه، فمنعه عدد من الفقهاء، ويقر المالكية بضرر المطحنة وبأضرارها على حوائط الجار، لكنهم لم يعتبروا الصوت الذي تحدثه من الضرر [3].

وحرصا على سلامة الهواء وطيبه، سعى الفقهاء إلى إزالة ضرر الشم الناتج عن الروائح الكريهة، كضرر الدباغين والحدادين أو ما يصدر من مداخن الأفران والخبازين والقلائين، والأصل في منع ضرر الرائحة قول الرسول: (من أكل من هذه الشجرة فلايقرب مساجدنا). و لهذا كان يتم اختيار أجود الأماكن وأطيبها هواء من أجل إقامة المدن عليها، فجعلوا من شروط اختيار المدينة اعتدال المكان وجودة الهواء[4].

ولغرض الحفاظ على أخلاق المجتمع كان للطّريق أحكام أفاض الفقهاء والمحتسبون في سردها، فالطريق تعتبر بمثابة الشرايين، وهي المقياس الحقيقي لدرجة التحضر داخل المجتمعات، فالمدن العامرة هي التي تعج شوارعها بالحركة وتمتلئ بالسلع، ولا تكاد تخلو ساعة من نهار، فلذلك جاء الأمر بتنظيف الطريق، وعدم تلويثها، والنهي عن الجلوس في قارعتها أو الإضرار بسالكيها أو اتخاذ المصاطب في أبواب الدور والأفنية [5].

---

[1] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 162.

[2] –العقباني، المصدر السابق، صص62-66؛ بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 164.

[3] – بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص 167.

[4] – ابن أبي الربيع، المصدر السابق، صص105-106.

[5] –العقباني، المصدر السابق، صص62-66؛ بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، صص175-176.

وتمّت تغليظ عقوبة من يقطع الطّريق على النّاس ويسلبهم أمنهم وأموالهم، ودعى الفقهاء إلى تعزير من يتحرش ببنات المسلمين أو يتلفظ بما لا يليق.

وحفاظا على صحّة الفرد ولأجل سلامته من وهج الشمس وحرّها الحارق كان يتمّ تسقيف الشوارع وتم إبراز الواجهات من أجل حماية المارة والسلع كالحرير، وانتشرت السباطات فكان بين قصر قرطبة ومسجدها ساباط، وآخر بين قصر الزهراء ومسجدها، وفي طرابلس حي يسمى تحت السيباط[1]، وتم استعمال البروزات في الطوابق لتوفير الظلال والأجنحة والرواشن، وعند أحد جانبي أبواب البيوت كانت توجدُ عتبة مرتفعة حتّى يجلس عليها الشيوخ أو المرهقين عند التّعب وعدم القدرة على الوقوف وتسمى بالمصطبة أو المكسلة أو الدكّة.

[1] - يحي وزيري، المرجع السابق، صص100-101.

مرّت العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي بعدّة مراحل، وكلّ مرحلة من هذه المراحل تركت بصمتها بارزةً على جميع الأصعدة، وسنحاول في هذه المحاضرة أن نتتبع أهمّ التحولات العمرانية التي واكب الدّولتي حكمت الغرب الإسلامي.

- إبّان الفتح الإسلامي:

شكّل الفتح الإسلامي لإفريقيا والأندلس حدثا بارزا ونقطة تحوّل في تاريخ هذه الأقاليم، حيثُ صادف المسلمون عمارةً عظيمة وحصونًا وقلاعًا كثيرة على غرار برقة* وطرابلس* وقابس وسبيطلة وحصن الأجم[1] وفزّان وباغاية وطبنة وقسنطينة وطنجة وسبتة في إفريقية و المغرب، وطليطلة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسيّة.

ففي بلاد المغرب نلاحظ أنّ العرب في البداية ركّزوا على المنطقة التي أطلق عليها عبد الله العروي مصطلح "مغرب الوسط"، فكانوا يحاربون في السهول الدّاخلية، متحاشين التلال والجبال الوعرة[2]، ولأسباب عسكرية بحتة ارتبطت بالصّعوبات التي واجهت قادة الفتح الإسلامي، بدأ التفكير في بناء قاعدة عسكرية على غرار البصرة والكوفة والفسطاط. وفي سنة (50هـ/670م). وعندما أعاد معاوية بن خديج غزو إفريقية، احتفر المسلمون آبار خديج بباب تونس، وبنوا بأوامر قائدهم في ناحية القرن مساكن سمَّوها القيروان، لكنّهم لم يقوموا بتعميرها[3].

---

* برقة: هي إسم لإقليم وأيضا إسم للمدينة التي هي قاعدة هذا الإقليم، وهي مدينة قديمة افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين صلحا. يُنظر: اليعقوبي، المصدر السابق، ص184؛ عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1964، ص 29.

* – طرابلس: هي مدينة من المدن الواقعة حاليا في ليبيا، وهي من أوائل المدن التي فتحها الملمون، ونقل عبد الرحمن بن الحكم تاريخين، وهما سنتي 22 و23 هـ فيم ذكر قدامة بن جعفر تسنة 22هـ و أمّا البكري فأكّد أنّ ذلك تمّ في سنة 23 هـ ينظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 30؛ قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص342-343. البكري، المصدر السابق، ص55؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، دمشق وبيروت، ط2، 1398، ص144؛ علي ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997، ج2ص409.

[1] – يراجع فتح هذه المدن من خلال المصادر التالية: عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ، ج2صص573-575؛ ج 7ص11؛ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، أبو بكر بن مُحَمَّد المالكي، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م، ج1ص21؛ عبد الرحمن بن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 45؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، منشورات: مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ج24 ص8.

[2] – عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 1996، ج1ص139.

[3] –المالكي، المصدر السابق، ج1ص30؛ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 46.

بيد أنّ البداية الفعلية للعمارة الإسلامية ببلاد المغرب تمّت على يد عقبة بن نافع، الذي اختطّ مدينة القيروان سنة (50هـ/670م)، وهي المدينة التي أرادها أن تستجيب لطموحاته العسكرية، ولمتطلبات جيشه، فهي بعيدة عن البحر وبذلك ستُجنّب المسلمين غارات بحرية لا قبلَ لهم بدفعها بسبب ضعف معرفتهم بالحروب البحرية وعدم امتلاكهم لأسطول أو دار صناعة، إضافة إلى كونها تقع في مكان تحيط به السِّباخ وهو ما تحتاجه العرب لإبلها.

لقد عبّر عقبة بن نافع عن الدّوافع التي حرّكت رغبته في تأسيس هذه المدينة لما خاطبه أصحابه قائلا: (أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة يجعل بها عسكر، وتكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر)، وعندما طالبه بعض أصحابه أن يقرب المدينة من البحر أجابهم: (إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها غزاة البحر)، كما أمرهم أن يقرّبوها من السبخة، وردّ على من اعترض عليه قائلا: (لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا)، ثمّ أسس دار الإمارة، واتخذ لها من الخمس ما يتخذ الأمراء لحرس المسلمين[1]، وبدأ في بناء المسجد الأعظم فاختطه، ولم يُحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه ثم أخذ الناس في بنيان الديار وغير ذلك، فشُدّت إليها المطايا من كل مكان[2].

وفي ولاية أبي المهاجر بن دينار (55-62هـ/674-681م ) رأى هذا القائد الجديد أن يتحوّل عن القيروان، وأمر بهدمها ونزل بعيدا عنها بمسافة ميلين، حيثُ بنى مدينة تيكيروان[3]. لكنّ عقبة بن نافع عاد إلى ولايته أيام يزيد بن معاوية سنة (62هـ/674م)، وجدد بناء القيروان وشيدها، وهدم مدينة أبي المهاجر[4].

على أنّ القيروان لم تكن بلغت مستوى كبيرا من التطّور، إذ بدأت بداية محتشمة، يغلب عليها البساطة والبداوة، مثلها مثل ما عاصرها من المدن التي اختطّها العرب قريبا من تلك الفترة كالبصرة والكوفة والفسطاط. فالسمة العامّة التي غلبت على المدينة الأموية حينها هي

---

[1] -المالكي، المصدر السابق، ج1صص10-12.

[2] - المصدر نفسه، ج1صص12-13.

[3] -النويري، المصدر السابق، ج24، صص13-15.

[4] - المالكي، المصدر السابق، ج1ص34.

السّعي إلى المحافظة على التقاليد العربية، وهو ما نفهمه من كلام ابن حزم عند قوله: (الدولة الأموية كانت على علاتها دولة عربية، لم يتخذوا قاعدة ولا قصبة، إنما كان سكنى كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل خلافته[1] ).

وبسبب الصراع بين الفاتحين ومن تبقى من البيزنطيين مدعومين بالأفارقة والبربر، تعرضت بعض مدن إفريقية والزاب[2] إلى التخريب، خصوصا أسوار تلك المدن وقلاعها العتيدة، لكنّ الضربة الكبيرة التي أصابت المدن إفريقية في أيام ولاية حسّان بن النعمان، حين عمدت الكاهنة إلى تخريب العديد من المدن والأسوار والقلاع وانتساف البساتين والزروع.

وإثر مقتل الكاهنة بدأ حسّان بن النّعمان ينفذ خطّة التمكين لاستقرار الإسلام والمسلمين بإفريقية، لذلك بنى مسجد القيروان بناء حسنا، وجدده في شهر رمضان سنة(84هـ/703م)[3]، ودّون الدواوين ووضع الخراج على عجم إفريقيا وعلى نصارى البربر[4]. ثمّ بنى بقرطاجنة دار الصناعة و المسجد[5]. ويُعتبر جامع الزيتونة أحد المساجد التي أمر حسان بن النعمان ببنائها سنة (79هـ/698م)، ثمّ أتمّه عبيد الله بن الحبحاب سنة(113هـ/ 732م)[6].

وفور تمكّن المسلمين من إحكام قبضتهم على بلاد المغرب، كان عليهم أن يواجهوا بين الفينة والأخرى محاولات يائسة من بقايا الرّوم ممن لجؤوا إلى صقلية وجنوب الأندلس، لذلك بدأ الهجوم على مدينة تونس أيام عبد الملك بن مروان، وتفطّن الخليفة لخطورة الوضع فأمر ببناء

---

[1] – ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص95.

[2] – قال حسن الوزان :أنّ إقليم الزاب يقع في وسط مفازات نوميديا, ويبتدئ غربا من تخوم مسيلة, ويحده شمالا جبال مملكة بجاية, ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس, وجنوبا إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة, وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية. لا يوجد بها يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب, لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى. يشمل الاقليم خمس مدن وعددا كثيرا من القرى, وهي بسكرة- البرج- نفطة- دوسن-طولقة. ينظر: المصدر السابق، ج2صص138-141.

[3] – المصدر نفسه، ج1ص56.

[4] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، صص64-65.

[5] –المالكي، المصدر السابق، ج1ص56؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج4صص19-21.

[6] – مُحَمَّد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص108.

دار صناعة وبدأ الفقهاء وبعض الصحابة يتحدثون عن فضل الرباط في المنستير، وبالغ بعض رواة الحديث فنسبوا أحاديث للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك[1].

وإذا كانت الأحاديث الموضوعة ربما ساهمت في عمارة تونس ورباط المنستير فإن أحاديث أخرى نفّرت من سكنى بعض البقاع مثل ثهوذة التي كانت مدينة عامرة أيام البيزنطيين، لكنّها بعد مقتل عقبة بن نافع ومن معه بها سُميت بالْبُقْعَةَ الْمَلْعُونَةَ[2]. وفي هذه الفترة تعرضت بعض المدن القديمة إلى الهدم والخراب على شاكلة مدينة قرطجنة التي كان خرابها في مدة عبد الملك ابن مروان حين غزاها المسلمون وحملوا سلبها إلى دمشق[3].

- ولاية موسى بن نصير وفتح الأندلس:

وفي أيام موسى بن النصير تمّ فتح طبنة [4] و قلعة مجّانة، التي سميت قلعة بشر[5]. ثمّ كان المشروع الأكبر والذي هو فتح بلاد الأندلس والتي كانت حينها تحت حكم القوط، وكانت الأندلس تضمّ عدّة مدن عظيمة على شاكلة مدينة طليطلة وقرطبة.

كما حاول موسى بن النصير أن يقضي على أي فتنة محتملة يقوم بها الروم والأعاجم، لذلك بادر إلى نقلهم من المدن البعيدة إلى المدن القريبة[6] وبدأت عمليّات توطين العرب في مدن إفريقية والزاب والمغربين الأقصى والأوسط جنبا إلى جنب مع الأفارقة.

أصبح المسلمون العرب هم الطبقة المتحكّمة في مقاليد السلطة والجيش، بينما صار الأفارقة يعملون في الإدارة، أمّا البربر فتمّ احتواء عدد كبير ممن أسلم من قبائلهم منذ عهد حسان بن النعمان، و شاركوا في إتمام فتح بلاد المغرب وساهموا في فتح الأندلس وتحصّلوا بها على إقطاعات شاسعة وسكنوا بجوار العرب والقوط النّصارى، وحوّل المسلمون الكثير من الكنائس إلى مساجد.

---

[1] – المالكي، مصدر السابق، ج1صص5-10.

[2] – أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، صص9-10.

[3] –الزهري، المصدر السابق، ص108

[4] –البكري، المصدر السابق، صص135-136.

[5] – الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: محمّد زينهم محمّد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ط1، 1994، ص52؛ النويري، المصدر السابق، ج24، ص21.

[6] – ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج6 صص139-144.

وباستثناء القيروان لم يقم المسلمون طيلة عصر الولاة ببناء مدينة جديدة في بلاد المغرب، عدا مدينة نكور التي أسسها وبناها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري وصالح بن منصور هو المعروف بالعبد الصالح، وعلى يدي سعيد بن إدريس أسلم بربر صنهاجة وغمارة[1].

استوطن الفاتحون مدن إفريقية والمغرب والأندلس، واقتسموها إلى خطط و إقطاعات، يسكن كلّ خطّة قبيلة من القبائل، وكانت غالبية الفاتحين من القبائل اليمينة، ومعها بعض الفروع المضرية قبل أن يتدّعم الوجود العربي في شمال إفريقيا والأندلس بالجند الشّامي أواخر العهد الأموي ثمّ الجند الخراساني خلال الحقبة العبّاسية، فهؤلاء الجند سكنوا هم وأسرهم في البلاد المفتوحة، مع بقايا البيزنطيين والرومان والأفارقة والبربر من سكّان المدن، وتمّت الإستعانة بالأفارقة وبقايا الروم والبيزنطيين في الشؤون الإدارية، وفضّل الفاتحون الاستقرار بالمدن الداخلية، وتركوا حاميات صغيرة ورباطات في المدن الساحلية التي صارت تعيش هدوءا نسبيا على ما يبدو، كما أنّ مغرب الصحراء لم يسترع اهتمام الولاة طيلة هذه الفترة[2] فبقي موطنا للقبائل البدوية من بربر زناتة ولواتة ونفوسة وصنهاجة الجنوب وغيرهم.

- في عهد الدويلات المستقلة:

باستثناء مدينتي القيروان ونكّور لم يقم المسلمون بإنشاء مدن جديدة حيثُ اقتسموا المدن التي كانت قائمة، وأصبحت تحت نفوذ العصبة الغالبة على المدينة، إلى أن قامت الثورة الخارجية الكبرى التي جعلت نفوذ القبائل العربية ينحصر في جزء من إقليم إفريقية بينما توافدت أعداد منهم إلى بلاد الأندلس واقتسموا المدن والإقطاعات مع من سبقهم من العرب والبربر.

وشهدت فترة الصراع بين جيوش الخلافة الأموية أوّلا ثمّ العباسية ثانيا ضدّ الخوارج تخريب بعض الحصون والأسوار، وتعطيل العمارة نسبيا، فقد أحرقت بنو ورفجومة القيروان سنة

[1] -البكري، المصدر السابق، صص177-178.

[2] -العروي، المرجع السابق، ج1ص139

(140هـ/757-758م) وقتلوا عددا كبيرا من القرشيين[1]، كما تعرضت طرابلس لكثير من الغارات والحوادث المشابهة. ولذلك أمر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين (جمادى الثانية 148هـ/جويلية –أوت 765 ) عامله الأغلب بتحصين القيروان وخندقتها[2] خشية من غارات الخوارج وتمردات الجند المتكررة، وكان قبل ذلك عاملُ العباسيين ابن الأشعث سنة (144هـ/761م) قد أمر ببناء سور القيروان الذي كان تمامه في رجب من سنة 763/146م) [3] وفي سنة(157هـ/773م). جدّد يزيد بن حاتم المهلبي بناء المسجد الجامع بالقيروان[4] .

ولم تتمكّن الخلافة العبّاسية من إخضاع المغربين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس، إذ تغلّب الرستميون على جزء من بلاد المغرب الأوسط، وآل مدرار على إقليم سجلماسة فاكتف هارون الرّشيد بقبول البيعة الإسمية للأمراء الأغالبة حكّام إفريقية مقابل خراجٍ معلوم، وتمكّن الأدارسة من إقامة دولة بالمغرب الأقصى، وبدأت تظهر بعض المدن بأوامرَ من سلاطين هذه الدّويلات المستقلّة، فبنى الرستميون تيهرت وبنى آل مدرار سجلماسة فيما استقرّ الأغالبة في القيروان بينما بنى إدريس بن إدريس الأول مدينة فاس.

وأصبحت تيهرت عاصمة الدولة التي حلم بها الإباضية في المشرق والمغرب لذلك استقطبت أتباع المذهب والفارين من خلفاء بني العباس، وتبرّع إباضية البصرة وغيرهم بأموال ضخمة وصلت إلى عبد الرحمن بن رستم وبفضل هذا المال الكبير شرع سكان تيهرت في العمارة والبناء وإحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهار[5].

---

[1] – محمّد طالبي، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-296هـ/800-909م)، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1995، ص86

[2] – المرجع نفسه، ص87

[3] – ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص105.

[4] – المصدر نفسه، ج1ص114.

[5] – ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمّد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ص30.

وتنوّعت الجالية المقيمة بتيهرت، يقول ابن الصغير: (حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين[1]).

وفي عهد أفلح بن عبد الوهاب بدأ الأئمة الرستميون يباشرون الأعمال العمرانية بأنفسهم، فابتنى أفلح القصور واتخذ بابا من حديد وبنى الجفان، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصبة والضياع خارج المدينة، وكثر بناء القصور وهي مساكن ضخمة وسط بساتين غنّاء يتخللها الماء المجلوب عبر قنوات بطُرق هندسية مُبتكرة[2]. وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة ابتنت العدوة والجند القادمون من افريقية قد بنت مدينة عامرة خاصّة بهم، واشتهر سوق ابن وردة نسبة إلى بانيه[3] .

و اتّسع عمران مدينة تيهرت حتّى أشاد اليعقوبي بحُسنها فقال أنها (جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب)، وصار لها ميناء خاص بها هو مرسى فروخ الذي به كانت ترسو فيه مراكب تاهرت بينما ظلت متصلة جنوبا بمدن السودان الغربي وإقليم فزان وغيره.

أمّا فاس فاستبحرت أيضا في العمران إضافة إلى المدن التي صارت تابعة لإخوة إدريس، بينما حوّل آل مدرار سجلماسة إلى مركز تجاري مهم وملتقى للقوافل ونقطة عبور وسوق ضخم.

أما الأغالبة فابتنوا عدّة مدن على غرار مدينة العباسية التي بناها إبراهيم بن الأغلب[4]. وبنى هذا الأخير أيضا القصر الأبيض سنة(184هـ/800م) في قبلة القيروان على ميلين منها، وخطَّ للناس حوله فابتنووا ومصَّروا ما هناك، وبُني في عهد إبراهيم بن الأغلب الجامع بالجص والآجر، وجعل له أعمدة رخامية وسقَّفه بالأرز، وبلغت سعته مئتي ذراع في نحو مائتي ذراع، وسمى مدينته العباسية، وأورد هذه المعلومات البلاذري[5].

---

[1] – ابن الصغير، المصدر السابق، ص32

[2] – المصدر نفسه، ص51

[3] – المصدر نفسه، ص54.

[4] – في سنة 185هـ بنى إبراهيم بن الاغلب مدينة القصر القديم على ثلاثة أميال من القيروان وقد اشترى موضعه من بني طالوت ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص131.

[5] – محمد طالبي، المرجع السابق، ص157.

وفي القرن الثّالث بنى الأغالبة أيضا مدينة رقادة على بعد عشر كم جنوب مدينة القيروان بداية من سنة (263هـ/877م) على يد إبراهيم الثاني [1]، وتفنّنوا في تشييد القصور والمساجد والأسواق والآزاج والمواجل التي برع فيها الأغالبة. كما تطوّرت تونس في العهد الأغلبي بعدما استقرت بها جالية عربية هامة ساهت في تمصيرها، وظهرت الحمامات والقصور والرياض خارج باب السقائين، وتعددت الأبواب حتى بلغ عددها الخمسة: بابي الجزيرة وأرطة جنوبا وبابي البحر وقرطاجنة شرقا، وباب السقائين شمالا[2].

وتمّ تعيين ولاة على المدن القديمة وطبعُها بطابع إسلامي مثل برقة التي تمّ بناء سورها، وتوزّع الجند وغيرهم في أرباضها[3]. ومثل قابس التي كان بها عامل من قبل الأغالبة و كذلك طرابلس[4] وبعض مدن الزّاب كبغاية وطبنة وسطيف وبلزمة و نقاوس التي كان ولاؤها يتردد بين الأغالبة أو المخالفة عليهم[5].

وأمّا القيروان فتحولت إلى مدينة مستبحرة العمران، و كان عليها سور من لبن وطين لكنّه تعرض للهدم من طرف زيادة الله بن إبراهيم ابن الاغلب لما ثار عليه عمران بن مجالد وعبد السلام بن المفرج ومنصور الطبنذي، وكانت بداخل القيروان منازل الأغالبة، لكنّهم سرعان ما تحولوا عنها منذ أيام إبراهيم بن أحمد وتمّ استحداث مدينة رقادة على ثمانية أميال من مدينة القيروان وبني هناك قصر الإمارة.

وظهرت في هذه الفترة ما يمكن أن نسميته "المدينة الرباط" وهي مدن متاخمة للسواحل البحرية، ينزلها النساك والعباد والحرس، تحرسُ سواحل البلاد، كمدينتي أجية وطلميثة شمالي ليبيا، التي توزّع فيها عدد من المحارس والأسواق والمسجد الجامع والأجنة والمزارع وثمار كثيرة، إضافة إلى مدينة برنيق. واشتهر في هذه الفترة رباط بنزرت الذي كان ينزله العباد والمرابطون.

---

[1] – في سنة 263هـ ابتدأ ابراهيم بم أحمد بن الأغلب ببناء مدينة رقادة وفي سنة 264هـ كمل بناء القصر المعروف بالفتح وانتقل إليه إبراهيم بن أحمد. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص160

[2] – محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص149.

[3] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص181

[4] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص185.

[5] – المصدر نفسه، ص190.

بينما في المغرب الأقصى فاشتهر رباط ماسة الذي كان عبارة عن قرية كبيرة فيها المسجد المعروف بمسجد بهلول.

وساهمت مدينة سوسة في تنشيط البحرية الإسلامية، فعرفت بدار الصناعة إضافة إلى مدينة تونس التي كانت بها أيضا دار صناعة والتي كانت مُسوّرة بسور من لبن وطين وكان سورها مما يلي البحر بالحجارة، لكنّه تعرّض للهدم أيام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب حين خالف عليه منصور الطنبذي وحصين التجيبي والقريع البلوي.

وتألقت في هذه الفترة ما يمكن أن نسميه "المدينة الجزيرة" كجزيرة أبي شريك التي كثرت فيها التجارة وضمّت عددا من المدن الصغيرة إن صحّ التعبير، وأجلها مدينة البواسة التي كان ينزل فيها العمّال، وبالقرب منها مرفأ إقليبية الذي يعتبر نقطة انطلاق السفن صوب صقلية،و ظهرت أيضا بعض المدن التي يجوز أن نسميها "المدينة الحصن" على غرار أجدابية[1] و لبدة التي قال عنها اليعقوبي أنّها حصن كالمدينة على ساحل البحر،[2] وميلة التي كانت عامرة ومحصنة لكنّ حصنها لم يكن منيعا[3].

وبفضل الاستقرار الذي حظيت به مدن وأقاليم شمال إفريقيا والأندلس نشطت التجارة، كما أنّ الأمن على سواحل شمال إفريقيا أعاد الحياة إلى المدن الساحلية والرباطات. وتمكّن الأغالبة من فتح صقلية وكانت بها عمارة لا بأس بها، ومدن شهيرة مثل سرقوسة و باليرمو.

ورغم فترة الهدوء وحسن الجوار التي ميّزت الفترة الممتدّة من حكم الأغالبة وظهور الدويلات المستقلّة إلى غاية قيام الدّولة الفاطمية بالمغرب، فإنّ ذلك لم يمنع من قيام بعض المناوشات التي كانت ربّما تنشب بين الأغالبة والرستميين، فحين بنى أبو العباس بن أبي عقال(225-241هـ/840-856م) مدينة العباسية الجديدة قرب تيهرت سنة 227هـ بادر أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى تخريبها وحرقها[4].

---

[1] - اليعقوبي، المصدر السابق، صص181-185.

[2] - المصدر نفسه، ص184.

[3] - المصدر نفسه، ص190.

[4] - عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج4ص256.

كما أنّ الصّراعات الداخلية في هذه الدويلات تسببت في أضرار بالغة بالعمران، ففقدت مدينة القيروان مكانتها أمام سطوع نجم مدينة رقادة، وأمّا أسوار تونس والقيروان فتعرضت للتخريب في عدّة مناسبات، أمّا تيهرت فنالها قسطٌ من التخريب بسبب الصِّراع بين أبناء الأسرة الرستمية، وأيضا بسبب الفتن التي أجّجها النكّار والواصلية وأتباع يزيد فندين.

ممالك الصغيرة:

ممّا تميّزت به فترة الدويلات المستقّلة قيام عددٍ من الممالك الصغيرة كما تُسمّيها كتب الجغرافية، والتي أشرف عليها إمّا شيوخ القبائل البربرية أو بعض الأسر العربيّة من بقايا جند الفتح أو الجند الشامي والخرساني، أو إمارات حسنيّة من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين بدورهم ساهموا في تمدين المغرب الإسلامي و إعماره.

فمدن هاز والمتيجة ومدكرة كانت تحت إشراف الحسنيين[1]، وكذلك مدينة الخضراء التي تغلب عليها مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن وسوق إبراهيم التي كانت المدينة مشهورة يحكمها عيسى بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وأمّا أشهر مدنهم فهي تلمسان التي وصفها اليعقوبي بقوله"المدينة العظمى المشهورة بالغرب" وكان عليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة وأشرف على المدينة مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن سليمان، ويجاوره البربر من مكناسة وغيرهم[2].

ومن بين المدن التي أسّسها الحسنيون مدينة العلويين، وكانت خاضعة لسلطة أحد أبناء مُحَمَّد بن سليمان، ثم تركها العلويون فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي. ومن مدن الحسنيين أيضا مدينة نمالته التي أدار شؤونها مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن سليمان، إضافة إلى مدينة فالوس التي قال عنها اليعقوبي أنّها مدينة عظيمة ، وهذه المدن كان غالبية السكان فيها من بطون البربر مثل مدينة فالوس التي استقرت بها بطون من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وأنجفة وأنحره.

[1] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص192.

[2] – المصدر نفسه، ص96.

وتمكّن الحسنيون من تحويل مدنهم إلى قبلة للتجار، فأسَّسوا بعض المدن التي يمكن أن نسميها "المدينة السوق" كسوق حمزة، ونقصد بالمدينة السوق تلك التي يقصدها التجار من الآفاق، وتتوفر على الفنادق، وتتنوع فيها السِّلع على شاكلة مدن زويلة و سجلماسة.

أمّا المدن التي تمل|كها شيوخ القبائل البربرية أو بعض العمّال فمثل فزّان التي كان لها رئيس يطاع فيهم، ويبدوا أنّها قد تحوّلت إلى بلد عظيم حيث أنّ اليعقوبي قال عنها " بلد واسع ومدينة عظيمة" وكذلك بلاد نفوسة التي تغلّب عليها رئيس يقال له إلياس لا يخرجون عن أمره وكانوا يؤدون الطاعة لصاحب تاهرت، بينما مدينة ميلة كانت تحت حكم رجل من بني سليم إسمه موسى بن العباس بن عبد الصمد والذي تولّى من قبل ابن الأغلب[1].

واستطاع عدد من التجار الأندلسيين أن يُحدثوا مُدنا ساحلية مثل مدينة وهران التي شيّدها سنة (290هـ /902م) مُحَمَّد بن أبي عون بن عبدون وجماعة من الأندلسيين[2]، وقبلها شيّد البحريون الأندلسيون سنة(262هـ/875م) قلعة مدينة تنس [3].

- عمارة الأندلس:

وفي بلاد الأندلس تمكّن عبد الرحمن الداخل من إحياء الدولة الأموية بها، وخاض صراعا مريرا ضدّ القيسية أولا ثمّ حلفائه من الموالي واليمنية، وبعد أن استتبّ له الأمر شرع في تحصين المدن هو وخلفائه، و اتّخذ مدينة قرطبة حاضرة له، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة. و أنشأ بها مدينة في المنطقة الشمالية الغربيّة، وبنى بها قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشأم وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى رصافة هشام بن عبد الملك بالشام، وحوّلها إلى مقام ومنتزه ومركز للإمارة، وصارت الرصافة تُحفة سعى الأندلسيون إلى الاقتباس منها، وبذلك انتشرت الحدائق الأندلسية، ثمّ في سنة(150هـ/767م) تمّ إنجاز سور قرطبة الكبير، الذي استمر العمل فيه قرابة خمسة أعوام.

---

[1] - اليعقوبي، المصدر السابق، صص184-190.

[2] - ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص180

[3] - المصدر نفسه، ج1ص159.

كما بُنيت عدّة مساجد في المدن الأندلسية، فكان أعظمها المسجد الأموي بقرطبة الذي انطلقت أشغاله أواخر أيامه (سنة 170 هـ /786 م) والذي بُني في موضع كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد. وأتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس، وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار[1]. وبلغ عدد قصور قرطبة زهاء ثمانين ألفا، ناهيك عن العدد الكبير من البيمارستانات والمساجد، وكانت شوارع المدينة مضاءة ليلا، بسبب كثرة مصابيح المسجد الجامع التي امتدّت على طول عشرة أميال.

وتألقت بعض المدن الأخرى على غرار تدمير وإلبيرة التي كان بها جند دمشق وشدونة أين استقر جند حمص والجزيرة الخضراء التي نزلها البربر وأخلاط من العرب.

وكانت مدن الأندلس محتاجة إلى تحصينات قوية بسبب المالك النصرانية المتربصة، إضافة إلى مراكز التخزين والتموين لمواجهات أي كارثة محتملة، واشتهرت المدن الأندلسية كقرطبة وغيرها بالقناطر والأسوار، وأمّا سواحلها فقد عانت الأمرين من هجمات الفيكينج فقد دخلوا سنة(229هـ/843م)، وأحرقوا المدينة بعد أن نهبوها[2].

كما اهتمّ الأمويون ببناء المساجد ويُعدّ جامع عمر بن عديس باشبيلية أحد أقدم المساجد التي بنوها، وتمّ تسميته نسبة إلى القاضي الذي بناه سنة (214هـ/829م) أيام عبد الرحمن بن الحكم الأموي حسب ما كان مكتوبا في سارية من سواريه التي وجدها الناس أيام ابن صاحب الصلاة[3]

[1] – محمّد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط4: ج1-2-5)، 1997؛ ط2 (ج 3-4)، 1990، ج1صص220-221

[2] –اليعقوبي، المصدر السابق، ص194.

[3] – عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص389.

في سنة (297هـ/909م) تمكّن الفاطميون من إنهاء حكم الأغالبة، ثمّ سرعان ما أنهوا حكم الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة وقبيل تحقيق الفاطميين لهذه الانتصارات العسكرية كان عليهم أن يحاصروا عددا كبيرا من المدن كبلزمة وباغاية وطبنة ودار ملول، قبل أن يقتحموا القيروان ورقادة، ونحنُ نعلم ما كان يحلّ بالمدن المفتوحة عنوة من استباحة وتخريب.

غير أنّ الأمر لم يستتب للفاطميين ببلاد المغرب، فكانت التجمّعات العربيّة السنيّة لاسيما المالكيّة منهم، إضافة إلى الجماعات الإباضية، ويتبع هؤلاء جمّ كبير من القبائل البربريّة، تُكنّ حقدا لهؤلاء الحكّام الجدد، وقامت عدّة ثورات ضدّ الفاطميّين، أشهرها ثورة أبي يزيد التي كادت أن تعصف بدولتهم، كما ثارت القبائل الزناتية وجموع بني يفرن وبني برزال وغيرهم ضدّ الفاطميين وحلفائهم من كتامة مستمدّين العون من الدّولة الأمويّة بالأندلس، وتسبّبت تلك الثّورات في تخريب عدد كبير من المدن وتدمير حصونها مثل مدينة طبرق التي تعرّض حصنها للتخريب[1].

في المقابل ساهمت الدّولة الفاطميّة في ظهور عدّة مدن جديدة حيثُ اتخذها الفاطميّون ملاذا لهم عند نُشوب الثّورات ضدّهم، فقد أمر عبيد الله المهدي بتشييد مدينة المهديّة التي صارت مدينة ملوكية، وبادر خليفته إسماعيل بن محمّد بن عبيد الله الملقب بالمنصور (334-341هـ/945-952م) إلى ترك القيروان وسكن بجوارها في صبرة التي سمّاها المنصورية، واشتقّ اسم المدينة من صبر عسكر الفاطميين في الحرب وكانت تشبه في هندستها مدينة بغداد، حيث توسّطتها دار السلطان، وكان الماء يجري وسطها، ويقول عنها المقدسي: (شديدة العمارة حسنة الأسواق بها جامع السلطان وعرض سورها اثنا عشر ذراعا) وكانت حيطانها مبنية بالآجر المكحّل بالجيل.

وأمّا المهدية فتمّ اختيار موقعها بإحكام[2]، وبنيت على السّاحل، وتمّ تسويرها بالحجر والجيل، وشبّهها المقدسي بالقسطنطينية، فقال: (ومن أحب أن ينظر إلى القسطنطينية فلينظر

---

[1] – المقدسي، المصدر السابق، ص226.

[2] – في سنة(300هـ/912م)تحرك عبيد الله من رقادة يرتاد موضعا ليتخذه دار مملكته فوقع اختياره على مدينة المهدية. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص192

إليها ولا يتغنى إلى بلد الروم، فإنها على عملها)، وقد استبحرت وأصبحت واسعة العمارة، كثيرة الخطط، بها المسجد الجامع والسوق وحولها الأرباض، وتتصل بمرفأ للسفن، وتوجد بها قصور الفاطميين.

وإبّان هذه الفترة ظهرت بعض المدن الجديدة لأغراض عسكرية بحتة بناها الصنهاجيون على غرار مدينة المسيلة وأشير*، فيما حاول الزناتيون أن يستمدّوا العون من الأمويين بالأندلس والذين تمكنوا من انتزاع بعض سواحل بلاد المغرب من سلطة الفاطميين[1].

ويتحدّث المقدسي عن بلاد المغرب في هذه الفترة فيقول: (هذا إقليم بهي كبير، كثير المدن والقرى، عجيب الخصائص والرخا، به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة، وبه جزائر عدة[2])، وتحدّث أيضا عن المواد التي بنيت بها الأسوار والمساكن فذكر أنّها كانت مبنية بالحجارة كأطرابلس والجيل وأنّ قابس كان بُنيان أهلها من الحجارة والآجر.

وفي أيّام الفاطميين ظلّت القيروان محافظة على مكانتها كمصر للإقليم ، واتّصلت بهذا المصر مدن كثيرة، ووصفها المقدسي بمفخرة المغرب ومركز السلطان، لكنّ سور المدينة لم يعد موجودا ربّما بسبب تخوّف الفاطميين من تمرّد سكّانها. كما ظلّت المواجيل وسيلةَ شرب سكّان القيروان، وقد أجرى المعز لدين الله الفاطمي لأهل صبرة قناة من الجبل تملأ المواجيل بعدما تدخل قصره بصبرة، وكان بنيان أهل القيروان بالآجر، وأمّا الجامع فأحاطت به الأسواق، وكان فيه أعمدة من الرخام، مفروش وداره رخام، ومزاريبه رصاص[3].

ويبدو أن الفاطميين قد أعادوا تسوير مدن الزاب مثل مدينة الأريس وباغاية التي تمتّعت ببعض الاستقرار الذي جعلها تستعيد عمارتها، فكانت في زمن المقدسي كبيرة مسورة[4]. أمّا مدن المغرب الأوسط فتألقت منها مدينة سوق حمزة التي كان بناء أهلها من الطّوب، وهو ما

---

* – أشير: بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة, من بلاد الزاب، بناها زيري بن مناد الصنهاجي, وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة. الحميري، المصدر السابق، ص60.

[1] –المقدسي، المصدر السابق، ص231.

[2] – المصدر نفسه، صص215–216.

[3] – المصدر نفسه، صص224–226

[4] – المصدر نفسه، ص227.

يدلّ على بساطتها العمرانية، وقلّة تحضّرها، وأنّ عمرانها ظلّ يتّسم بالبداوة، وهو ما يؤكده شرب أهلها الذي كان من النهر، أما جزائر بني مزغنى فحظيت ببعض الاهتمام وتمّ تسويرها ، وصارت معبرا من المعابر إلى بلاد الأندلس[1].

واستمرّ توهّج مدينة تاهرت رغم ما أصابها إبان الحكم الفاطمي من حوادث، فقال عنها المقدسي: (تاهرت هي إسم القصبة أيضا هي بلخ المغرب قد أحدقت بها الابار والتفّت بها الأشجار وغابت البساتين ونبعت حولها الأعين)) [2]. وكان لتاهرت جامعان، وبنيت غالبية سكنات المدينة بالحجارة والجيل، وكانت الأسواق قريبة من الجامعين، وأحصى المقدسي للمدينة أربعة دروب رئيسة هي درب باب مجانة درب المعصومة درب حارة القفير درب البساتين، وكان بالقرب من تيهرت مدينة تُسمى رُها لكنّها خربت، وتحدّث المقدسي عن مدينة فكّان التي كانت مسوّرة، إضافة إلى بعض المدن التي يبدو أنها كانت صغيرة على غرار يلل ووهران التي صارت مسورة ومنها كانت تُقلع السفن إلى الأندلس. [3]

ونُلاحظ أنّ فاس أيضا حافظت على مكانتها ضمن مدن المغرب الأقصى وكانت عبارة عن بلدان جليلان كبيران، كل واحد منهما مُحصّن، وصار البلد الشمالي من نصيب الأمويين وهو عدوة الأمويين أمّا الجنوبي فمن نصيب الفاطميين وهو عدوة القرويين، وكانت حصن المدينة بالطوب[4].

ويشير المقدسي إلى حال المدن في المغرب الأقصى فيقول:( وسائر المدن عامرات، وبين فاس وصاع مدينة جليلة نزهة في رستاق مكناسة، وطنجة ناحية جليلة عامرة المدن برية وبحرية نفيسة سرية، وتحدث عن سجلماسة وأنها قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة شديدة الحر والبرد جميعا، صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ومع ذلك ثغر

[1] – المقدسي، المصدر السابق، ص228.

[2] – المصدر نفسه، صص228-229.

[3] – المصدر نفسه، صص228-229.

[4] – المصدر نفسه، ص230.

فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة وهم أهل سنّة وقوم جياد بها[1]). ونفهم من كلام المقدسي ما يؤكّد أن عمران بلاد المغرب لم يكن على شاكلة العمران ببلاد المشرق أو الأندلس، فقد قال: ( غير أنه متى يقاس المغرب بالشام، وأين مثل دمشق في الإسلام) [2].

وكانت صقلية ضمن أملاك الفاطميين وكانت قصبة إقليمها هي مدينة بلرم وذكر المقدسي أنها أوسع من الفسطاط لكنّها متفرقة، وكان بناء المدينة من حجر وجيل، وكان لها مدينتان الأولى داخلةٌ بها الجامع والأوساق في الربض، ومدينة أخرى خارجة مسوّرة تسمى الخالصة، وبها أيضا جامع ولها أسواق. ومن مدن صقلية مدينة أطرابنش بحرية، وقلعة البلوط التي كانت محصّنة وجرجنت ومدينة بثيرة الساحليّة والمسوّرة حيث توجد فيها عدّةحصون، أمّا سرقوسة فكانت عبارة عن مدينتين ملتزقتين لها ميناء عجيب وكان لها خندق، بينما ظلّت مدينة طبرمين البحرية حصينة وكان لها قلعة من حجارة، ومن مدن الإقليم أيضا مدينة بطرلية التي كانت مسورة وفي وسطها القلعة، وكان لها كنيسة[3].

- عمارة الأندلس في ظلّ الخلافة الأموية:

وفي الأندلس كان عبد الرحمن النّاصر سنة 316هـ/929 م قد أعلن نفسه خليفة للمسلمين، وباشر أعمالا عمرانية عظيمة تليقُ بهذا المنصب فأنشأ قصراً جديداً بقرطبة سمّاه دار الروضة، جلب إليه الماء من فوق الجبل، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساقَ إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة. فغدت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة، وسكانها الخمسمائة ألف، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر.

قرّر النّاصر أن يستحدث بجوار قرطبة ضاحيةً ملوكية عظيمة، فأنشأ مدينة الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة، في سفح جبل يسمى جبل العروس واستمرّ في بنائها من ( أول محرم سنة 325هـ/نوفمبر سنة 936 م)، وحشد الناصر للمدينة أمهر المهندسين والصُناع والفنانين من سائر الأنحاء، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية. وجلب إليها أصناف الرخام من

---

[1] – المقدسي، المصدر السابق، ص231.

[2] – المصدر نفسه، صص228-229.

[3] –المصدر نفسه، صص232-233.

بقاع مختلفة من الأندلس وإفريقيا، وجلب إليها من سواري الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وعشرين سارية.

وبلغ عدد العمال والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخسمائة، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر عدا ما أنفقه ولده الحكم.

وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصراً منيفا، ومسجداً عظيماً، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً ويُعتبر حقّا زمن قياسي يدلّ على مدى كفاءة ومهارة البنائين، ونُضج العمارة الأندلسية وكثرة البنائين والفعلة بها، فكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين، وتمّ تزويد المسجد بعُمدٍ وقباب فخمة، ومنبر رائع الصُّنع والزخرف، وأنشئت بالمدينة مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح، ومسارح للطير مظللة بالشباك، ودار عظيمة لصنع السلاح، وأخرى لصنع الزخارف والحلي وبذلك تحولت الزهراء إلى قاعدة ملوكية حقة، تجمع بن فخامة الملك الباذخ، وصولة السلطان المؤثل، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية[1] .

وتحدّث المقدسي عن قرطبة في عصره، ونقل ما سمعه عن بعض من زارها، فذكر أنّها مصر الأندلس وأنّها أجلّ من بغداد في صحراء يطل عليها جبل ولها مدينة جوانية وربض الجامع في المدينة و أغلب الأسواق ودار السلطان في الربض، قدامها واد عظيم سطوحهم قراميد، والجامع من حجر وجيل وسواريه رخام، حواليه مياض[2]. كما أشاد بمدينة أرجونة التي شهدت عمارة لابأس وكان لها سور ونفس الأمر ينطبق على مدينة جيان [3].

وفي هذه الفترة كان ربيع قرطبة قد منح الإنسانية ثماره العمرانية العجيبة، فزاد الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله في المسجد، وجعل كلّ أربعة سوار لها رأس واحدة من حجر واحد في أعلاها وأسفلها، كما بنى فيه الحاجب مُحَمَّد بن أبي عامر ثماني بلاطات من الجانب الشرقي[4].

---

[1] -مُحَمَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج1صص435-439

[2] - المقدسي، المصدر السابق، صص233-234.

[3] - المصدر نفسه، صص233-234.

[4] -الزهري، المصدر السابق، ص87.

وتحدّث الزهري عن أعجب بيت بُني بمدينة الزاهرة، والذي استمرّ بناؤه خمس وعشرين سنة، وكان مزيّنا بالزجاج والذّهب والفضّة وفي وسطه صهريج مملوء بالزئبق، وكانت الشمس عندما تدخل من أبواب القصر يضرب شعاعها في سمك المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يتلألأ يأخذ الأبصار. وكان النّاصر إذا أراد الناصر أن يفزع أهل المجلس أو ورد عليه رسول عمد إلى صقالبته فيحركون ذلك الزئبق فيظهر في المجلس تور كلمعان البرق يأخذ بمجامع القلوب، فيخيل لمن كان في المجلس أنه طار بهم في الهواء [1] .

- في عهد الدّولتين الزيرية والحمادية:

في سنة (357هـ/967م)، عزم المعز لدين الله الفاطمي على ترك بلاد المغرب بعد فتح جوهر الصقلي للقاهرة، وقام بتقليد بلكين بن زيري الصنهاجي أمر بلاد المغرب، وكانت الأسرة الزيرية قد بنت عدّة مدن في المغرب الأوسط على غرار أشير زيري ومليانة والمدية إضافة إلى مدينة الجزائر التي قاموا بتجديدها، وتطورت المدية والجزائر وأشير حتى أصبحت في من أعظم مدن المغرب الأوسط[2].

وكان زيري بن منّاد قد بنى مدينة أشير، والتي عرفت بأشير زيري، و خاض عدّة حروب ضد زعامات زناتة لقي في بعضها حتفه، ثمّ جاء بلكين بن زيري الذي أعاد بناء مدينة الجزائر، وتوسّعت في عهده مدينة أشير، وفي أيّام المنصور بن بلكين[3] بنيت مدينة القلعة والتي تحوّلت إلى مدينة مهمة، وتمكّن حمّاد من استغلال حصانتها لأجل التمرد على أخيه باديس الذي تولّى سنة (386هـ/996م) ، وبذلك تأسست دولة بني حمّاد التي صيّرت القلعة عاصمة لها، وبذل الحماديون جهدا كبيرا من أجل تمصير مدينتهم وتحويلها إلى مركز يقصده التجار.

ولم يكن الفن المعماري الزيري يخرج عن الفن الفاطمي الإفريقي، ورغم صلابة المواد التي بنيت بها مدن القلعة وأشير و وغيرها فإنّها سرعان ما تعرضت معالمها لمعاول الهدم وصروف التغيير

---

[1] – الزهري، المصدر السابق، ص88.

[2] – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث–الجزائرالمدية مليانة–، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007، ص254

[3] – المنصور بن بلكين: ولي سنة 274هـ, وتوفي سنة 286هـ. ابن عذارى, المصدر السابق، ج1ص239.

التي محت آثارها وهدّت أركانها، والتي لم تتمكن الترميمات المتلاحقة أن تخفف من وطأة النكبات المتعاقبة والوخيمة[1].

- الهجرة الهلالية والغزو النورماندي:

في مطلع القرن الخامس الهجرب بدا واضحا ضُعف الزيريين وكذا بني عمومتهم الحماديين، بالأخصّ عقب تمكّن القبائل الهلالية من اجتياح إفريقية، وهزيمة المعزّ بن باديس في معركة حيدران وغيرها[2]، إذ استباحت جموعهم مدينتي القيروان وصبرة، ومنذ ذلك الحين انحصر نفوذ الزيريين في المهدية وما اتّصل بها من القرى والأرياف، وكان خراب القيروان حدثا موجعا، خلّدته الذاكرة الشعبية ومراثي شعراء ذلك الزّمان[3].

ذاق الزيريون الأمرين من جرّاء الغزو الهلالي للمدن، والذين كانت البداوة تدفعهم إلى تخريب المدن وانتساف الزروع وأخذ الإتاوات وتحويل الكثير من المجالات الحضرية إلى مراعي للإبل، فتقلص العمران وانحسرت مساحته، وهجرت فئامٌ من السكان إلى بعض المدن الحصينة على غرار مدن القلعة الحمادية وباغاية وطبنة من مدن الزاب إضافة إلى المدن الساحلية كتونس والمهدية وطبرقة وبونة وسوسة ...إلخ.

---

[1] - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية-تاريخ إفريقية في عهدي بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م-، ترجمة : حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ج2صص331-337.

[2] - كانت موقعة حيدران سنة 443هـ/1052م قرب جبل حيدران. ينظر: أمين كرطالي، سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة دكتواره علوم، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر 02-، 2017-2018م، صص47-48.

[3] - ممّا قاله ابن شرف عن القيروان:

آه للقيروان إنّه شجـــــوِ  من فؤاد بحماحم الحزن يصلى
حين عادت بها الدّيار قبورا  بل أقول الديار منهنّ أخــلى

أمّا ابن رشيق فله قصيدة طويلة جاء فيها:

أترى الليالي بعد ما صنعت بنا  تقضي لنا بتواصل وتدان
وتُعيد أرض القيروان كعهدها  فيما مضى من سالف الأزمان

ينظر: حيزية حيتامة, رثاء القيروان بين ابن رشيق وابن شرف-دراسة موازنة, ماستر, جامعة بسكرة: كلية الآداب واللغات, 2014-2015م, ص98؛ ص101.

لكنّ الهلاليين لم يكتفوا بإفريقية بل واصلوا التقدّم إلى أن هزموا الحماديين في موقعة سبيبة (457هـ/1065م )*، ونجحت جحافلهم في التقدُّم رويدا رويدا ليتمّ لهم محاصرة القلعة التي لم يلبث أن تركها الحمَّاديُّون وهو ما عجّل بخرابها[1]، فتحوّل عنها النَّاصر بن علناس* وبنى مدينة بجاية، كما انتشر الهلاليون في قرى الزاب وفي أرض مزاب، وبدأوا يتقدمون شمالا ويطرقون السُّهول مضايقين للقبائل الكتامية والصَّنهاجية والزناتية ومزاحمين لهم[2].

وبالرّغم من الكارثة التي حلّت بعدد من المدن من جرّاء الظاهرة الهلالية، فإنّها كانت سببا غير مباشرٍ في تألّق مدن ساحلية عدّة مثل بجاية التي تحولّت إلى عاصمة جديدة لدولة بني حمّاد بعد أفول نجم القلعة، ناهيك عن تونس التي لم تعرف تطورا من حيث السكان والعمارة إلا بعد خراب القيروان المتزامن مع الهجرة الهلالية، ساهم تراجع دور المهدية بفعل الاجتياح النورماني منذ بدايات القرن السادس في بُزوغ نجم تونس فأضحت تمثل قطبا كبيرا في إفريقية خاصة[3].

وغدت مدينة بجاية في أيّام الإدريسي قاعدة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، فالسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع نافقة وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع مالي بكثير من البلاد ، ومثّلت بجاية قطبا لكثير من البلاد[4]. بينما تطوّرت مدينة فاس تطورا كبيرا بعد أن تفرق أهل القلعة صوبها و بنوا فيها

---

* – سبيبة قال عنها صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار :((مدينة أزلية ذات أنهار ومياه سائحة تطحن عليها أرحية، ...وفيها اليوم بعض سكنى لقبائل من البربر والعرب، ..ولم يكن بإفريقية أخصب أرضا منها ولا أكثر بساتين وثمارا وعيونا جارية)). مجهول (ت ق 6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م، ص161؛ الإدريسي, المصدر السابق, 294/2.

[1] –الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص261.

* الناصر بن علناس: أحد ملوك بني حماد, قام بقتل بلقين بن محمّد وخلفه سنة 454هـ/1062م, وقد كان سفاكا للدماء غيورا, وأسس بجاية, وامتد حكمه سبع وعشرين سنة. ينظر: محمّد بن عبد الله بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمّد ابراهيم الكتاني, الدار البيضاء: دار الكتاب, 1964, صص94–95؛ رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص58.

[2] – أمين كرطالي، سلطة شيوخ القبائل العربية، صص57–60.

[3] – محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص149.

[4] – المصدر نفسه، مج1، ص260.

جامع المعز و الدور الكثيرة، ولهم فضل في اكتساب الفاسيين حرفة البناء وفنون الطرب والتمدن[1].

ويتحدث الإدريسي وكذا التيجاني عن أثر الغزو الهلالي لبلاد إفريقية وكذا قرى الزاب ووفي نفس السياق يسرد ابن خلدون وابن الشمّاع تفاصيل هذا الغزو ويعدّدون آثاره، والكلّ يؤكّد أنهم قلّصوا من عمارة المغرب الإسلامي وساهموا في تخريب عدد من المدن، إذ يشير الإدريسي إلى مدينة أطرابلس والتي رغم أنها مدينة حصينة، تحتمي بسور من حجارة، و تتصف شوارعها بغاية الحسن والإتقان، ناهيك عمَّا تحويه من أسواق وكثرة العمارات فإنّ العرب قد أضرت بجميع جهاتها وبما حولها [2]. ونفسُ الشيء نُلاحظه عن القيروان التي خربت بسبب تسلط العرب عليها، وتوالي الجوائح، حيثُ أنّها : ( لم يبق منها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة، وهي في وقتنا هذا جزء منها تراب وولاة أمورها العرب وهم يقبضون ما يتوفر من جباياتها، وبها اقوام قليلون)[3].

وتحدث صاحب "نزهة المشتاق" عن الطريق من مدينة بجاية إلى القلعة الذي كثرت حوله الحصون، وهي تحصينات بسيطة اتّخذتها القبائل الضعيفة للاحتماء من غارات القبائل العربية، مثل حصن تاكلات، وحصن بكر وحصن وارفو إضافة إلى الحصن الجديد، وبذلك يُمكننا أن نتعرّف على المجال الذي كانت تجول فيه العرب، والذي فيه حصون السقائف والناظور وسوق الخميس وقصر المطماطة، وغيرها من الحصون التي اضطرّ جميع أهلها إلى مهادنة العرب، فيما فضّل سكّان عدّة جهات الهجرة وهو ما أدّى إلى تناقص عمران عدّة مدنٍ كانت في السّابق متألقّة مثل مدينة دار ملول التي تركها أهلها بسبب حصار العرب وغاراتهم[4].

---

[1] -الزهري، المصدر السابق، ص.112

[2] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص297.

[3] - المصدر نفسه، مج1 ص275.

[4] - المصدر نفسه، مج1 صص263-264.

وشيئا فشيئا تملك العرب عدّة مدن مثل بسكرة* ومدينة ميلة رغم تبعيتها الإسمية ليحيى بن العزيز. وتربصت العرب بالقرى والحصون الممتدة عبر الطريق الرابط بين مدينتي قسنطينة و بجاية وانتشرت الخرائب عبر هذا الطريق وتقلص العمران[1]،كما أنّ مدينة باغاية بدأت تضمحلّ في عهد الإدريسي، و أصبحت أرباضها خالية بسبب فساد العرب [2].

وما زاد الطّين بلّة تمكّن النورمانيين بعد أن أنهوا الحكم الإسلامي في جزيرة صقلية من السيطرة على عدد من سواحل إفريقية والمغرب الأوسط، فتمكّنوا من أخذ المهدية وجيجل وغيرها من المدن، في حين أنّهم ظلّوا يتربّصون بالسواحل ويكررون الغارات وهو ما دفع بسكّان تلك المدن إلى الهجرة وأصبحت بعضها خالية من السكان، فيما صار سكّان مدن أخرى يقيمون في الصيف في الجبال والمرتفعات المحيطة بمدنهم الساحلية، ثمّ إذا جاء الشتاء وأمنوا هجوم الاساطيل النورمانية عادوا إلى مدنهم. فالمهدية التي كانت محطّ السفن ومركز إقلاع صوب المشرق وغيره من البقاع، تمكّن رجار من الاستيلاء عليها سنة (543هـ/1148م)[3]. وأمّا مدينة بونة أيضا فتغلب عليها أسطول نورماني بقيادة أحد رجال الملك رجار سنة (548هـ/1153م) وانتزعت من آل حماد [4].

وبسبب غارات النورمان قلّ سكّان المدن الساحلية فمدينة برشك –قوراية حاليا– والتي افتتحها روجار سنة وخمس مائة قلّ سكانها وهو ما حدث أيضا لمدينة تامدفوس التي بعد خرابها وتهدّم أكثر سورها هجرها السكّان[5]. وأيضا تكرّر الأمر بالنّسبة لمدينة مرسى الدجاج التي صار بشرها قليل، وربما فر عنها أكثر أهلها في زمن الصيف[6]. وحين استولى رجار على

*بسكرة: مدينة من مدن الشرق الجزائري, تقع جنوب غرب باتنة, كانت قرية بربرية عتيقة عرفت أيام الحكم الروماني, تحت اسم فيسيكرا, وعلى مقربة منها استشهد عقبة قال عنها حسن الوزان:(( مدينة عريقة في القدم, أسست أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر، وخربت بعد ذلك, ثم أعيد بناؤها لما دخلت الجيوش الاسلامية إلى افريقيا، وهي الآن عامرة كما ينبغي, وسورها من الآجر النيء)). المصدر السابق، ج2ص138؛ أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر،المطبعة العربية، الجزائر، ص198؛ الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص264.

[1] – المصدر نفسه، مج1 ص270.

[2] – المصدر نفسه، مج1 ص276.

[3] – المصدر نفسه، مج1 ص283.

[4] – المصدر نفسه، مج1 ص291.

[5] – المصدر نفسه، مج1 صص257-258.

[6] – المصدر نفسه، مج1 ص259.

مدينة جيجل، فرّ أهلها إلى أحد الجبال المتاخمة لها، وبنو هناك مدينة حصينة فإذا كان زمن الشتاء سكنوا المرسى والساحل وإذا كان زمن الصيف ووقت سفر الأسطول نقلوا أمتعتهم وجملة بضائعهم إلى الحصن الأعلى، وهكذا أصبحت جيجل أيام الإدريسي خرابا مهدمة الديار مثلمة الأسوار ليس بها ساكن[1] .

ورغم أنّ النورمانيين قد عجّلوا بإنهاء دولة الإسلام في صقلية وتعجيلهم بمحوِ الكثير من المعالم الإسلامية وطمس آثارها العظيمة، فقد بقيت عدّة شواهد تُؤكّد مدى العظمة التي بلغها المسلمون في هذه الفترة، مثل قصر الفوارة **Favara** في بلرم، والذي يعود إلى عهد الأمير جعفر الكلبي من ملوك بني الحسن بين سنوات (388-406هـ/998-1019م) وكان في الأصل مجموعة مبان حول ساحة تحيط بها من جوانبها الثلاثة بركة اصطناعية، ويوحي إسمها أنها كانت تحوي على نوافير تستمد مياهها من أحد الجبال المجاورة، ولا تزال واجهة القصر تحمل بعض البوائك[2]. وحتّى قصر العزيز الذي شاده الملك غليام الأول بين سنتي(548-561هـ/1154-1166م) فإنّه مجرّد إمتداد للعمارة الإسلامية ومن تصميم مهندسين وبنائين ونقاشين مسلمين[3]، كما أنّ البرج المسمى برج بيش بالقصر الملكي النورماني في بلرم مقتبس من قصر المنار في قلعة بني حمّاد الذي شيد في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وللبرج محور مربع في وسطه كالنواة[4]

- عمارة الأندلس في عصر ملوك الطوائف:

وفي الأندلس كانت الخلافة الأموية قد بدأت تلفظ أنفاسها، رغم ما تميّز به عصر المنصور بن أبي عامر من إنجازات على كلّ الأصعدة، لكنّ نجاح المنصور بن أبي عامر في الاستبداد بأمر الأندلس بحدّ ذاته هو دليل على ضُعف الأمويين، وقُرب نهاية حكمهم.

و أنشأ المنصور بن أبي عامر مدينة الزاهرة، وبنى فيها قصراً ملوكياً فخماً، ومسجداً، ودواوين للإدارة والحكم، ومساكن للبطانة والحرس، وأقام حولها سوراً ضخماً، ونقل إليها خزائن المال

[1] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص268.

[2] - عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، 1980، ص112.

[3] - أحمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، ص39.

[4] - عزيز أحمد، المرجع السابق، ص113.

والسلاح، وإدارات الحكم؛ وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة، وأكابر رجال الدولة، فابتنوا الدور العظيمة، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة أضحت تنافس المدينة الخليفية في الضخامة والرونق. وفي أوائل سنة(370 هـ/980 م)، انتقل مُحَمَّد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخلافة، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي؛ وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر الخليفي سوراً وخندقاً، وأحكم غلق أبوابه[1].

وبموت المنصور بن أبي عامر انتهت الدولة العامرية، وانتهت بانتهائها الدولة الأموية في الأندلس، ودخلت البلاد في فوضى كبيرة عجلت بنهاية مدينتي الزهراء والزاهرة خصوصا بعد حوادث (ربيع الأول سنة 401 هـ/نوفمبر سنة 1010م) عندما زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية صوب قرطبة لينتزعوها من الخليفة هشام المؤيد، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه، واقتحموا في طريقهم مدينة الزهراء، وفتكوا بحاميتها وسكانها، وعاثوا في معاهدها ورياضها، وأحرقوا المسجد والقصر، ولبثوا فيها بضعة أشهر. والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة. ولا يكاد اسم الزهراء، يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر[2].

وفي عصر ملوك الطوائف، ورغم الانحطاط السياسي والتشرذم الذي عرفته الأندلس خلال هذه الحقبة العصيبة فإنّ تنافس ملوك الطوائف في تحصين مدنهم وتوسيع عمارتها من أجل تحويلها إلى قبلة للتجار والفقهاء وغيرهم، ساهمت في تألق حواضرها بالأخصّ قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وسطع الفن الأندلسى ونثر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد فى إشبيلية، وبنو ذى النون فى طليطلة، حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء، وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه، مما أفاض فى وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء.

---

[1] -مُحَمَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج1ص535.

[2] -المرجع نفسه، ج1ص440.

وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء، فبات روشنه الشهير* الذى بُني وسط بحيرة القصر، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية، منبعا أنعش مخيّلة الشعراء، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التى تقذف الماء من أفواهها، وهى لا تزال تقذف الماء ولا تفتر. وأنشأ المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود أمير سرقسطة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قصره الرائع المسمى "بقصر السرور"، وكان أروع ما فيه بهوه العظيم الذى زُيّنت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة والذى كان يسمى "بمجلس الذهب".

ولما سقطت سرقسطة فى يد النصارى شوهت معالم هذا القصر وأدخلت عليه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وبدائعه العربية. ومازال يقوم على موقعه السابق الصرح الذى يسمى بقصر الجعفرية( **Palaci Aljarafia**) وقد اشتهر المقتدر بن هود، فى التاريخ وفى الشعر، بقصره الفخم ومجلسه الرائع، ذى النقوش والتحف الذهبية البديعة[1].

وتمكّن حبُّوس من تحويل غرناطة بداية من سنة (411هـ/1020م) إلى مدينة ملوكيّة عظيمة، ومهّد الطريق لعصر غرناطة بني الأحمر في أواخر عهود الأندلس، وتمكّن حبّوس من إتمام بناء المدينة، وحشد الجند ونظم الجيش، وأقام له بلاطاً فخماً[2].

لكنّ الممالك النصرانية كانت قد قويت ولاح لها ضعف ملوك الطّوائف، وتمكّنت من ضرب بعضهم ببعض، وخاض ملوك الطّوائف حروبا ضدّ بعضهم البعض بغرض التوسّع وبسط النفوذ، ودخلوا في تحالفات مع الممالك النصرانية جعلتهم يتنازلون عن الكثير من الحصون، ثمّ دفعوا الثمن غاليا حين أظهرت هذه الممالك النصرانية نيتها في طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية، وأدت هذه الحروب ضد الممالك الإسلامية وكذا الممالك النصرانية إلى خراب الكثير من المدن والحصون والقلاع. بل وإلى سقوط مدن إسلامية كثيرة وإستيلاء النصارى عليها، وأهم تلك المدن طليطلة.

* الروشن: عبارة عن بروز خشبي أو حجري يخرج من حائط الدار إلى الطريق ولا يصل إلى جدار آخر يقابله، فإن وضعت به أعملدة لحمله فهو الجناح وإن لم توضع به أعمدة فهو الروشن. مُحَّد رزق، المرجع السابق، ص128.

[1] -مُحَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج5صص511-514.

[2] -المرجع نفسه، ج2ص126.

شهد بلاد المغرب والأندلس وجزء من السودان الغربي إبّان حكم المرابطين ثمّ الموحّدين نقلة عمرانية بارزة، حيث نشأت عدّة مدن ومنشئات عمرانية ومرافق حيوية بتشجيع من السّلطة الحاكمة.

أ- عهد الدّولة المرابطيّة:

في منصف القرن الخامس الهجري ظهرت دولة المرابطين، وحاولت هذه الدّولة أن توحّد جزءا مُهما من إقليم المغرب الأقصى وبلاد السّوس وما جاورها من بلاد صنهاجة الجنوب، وتمكّن المرابطون من توحيد صفوفهم ثمّ قضوا على مملكة برغواطة وغيرها من الممالك والجماعات، وبنوا مدينة مراكش التي تحولت إلى عاصمة لدولتهم، وتوسعوا غربا فوصلوا إلى تلمسان بل وإلى جزائر بني مزغنى لكن لفترة محدودة قبل أن يتراجعوا عن تلمسان، كما أنّهم تقدموا نحو الأندلس، وتمكّنوا من هزيمة الممالك النصرانية في موقعة الزلاقة وغيرها من المعارك، وعجّلوا بإنهاء حكم ملوك الطوائف، وبادروا إلى تحصين المدن والمرافئ ومحاولة تخليص بعض المدن كطليطلة وغيرها من قبضة النصارى.

وبفضل المرابطين بدأ المدّ الإسلامي يجتاح بلاد السودان الغربي بقوّة، وبذلك ظهرت عمارة إسلامية لا باس بها، ونشطت الأسواق وصارت أودغشت وغيرها من المدن مقصدا للتجار، وبُنيت المساجد والمدن والفنادق حول المنازل التي كان ينزلها التجار. وأصبحت أغمات واحدة من المدن المتطورة إبان العهد المرابطي، وتفنن الملثمون في بناء المساكن، وكان بنيانهم بالآجر والطوب والطين، وأصبحت طريقة بناء وهندسة القصور تدلّ على مدى ثراء صاحب البناء[1].

و أشار البكري إلى مدينة غانا خلال فترة المرابطين ووصفها بالمتقنة المباني وحسنة المنازل، وكانت تقيم بالمدينة جماعات مسلمة يبدو أنّهم إباضية زناتة والمالكية من العرب، وهو ما يفسر الكره الذي كان يحمله كلّ فريق تجاه الآخر، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الجماعات أن تُحصّل أموالا عظيمة وهو ما يؤكّد أنّهم كانوا حذّاقا في التجارة، وأصبحت للمسلمين مدينةٌ تعيش جنبا إلى جنب مع مدينة أخرى التي ربّما استوطنها الأفارقة الوثنيون،

[1] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1ص232-233.

و بلغ عدد مساجد مدينة المسلمين اثنا عشر مسجدا جامعا، وكانت مباني غانا من الحجارة وخشب السنط[1].

ويرجع الفضل في بناء مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين في صدر سنة(470هـ/1077م)، الذي اشترى أرضها من أهل أغمات، واختط المدينة له ولبني عمه في وطاء من الأرض بجوار جبل صغير يسمى ايجليز[2]، ومن هذا الجبل تمّ أخذ الحجر الذي بُني منه قصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المعروف بدار الحجر، بينما بنيت بقية المنازل بالطين والطوب والطواني المقامة من التراب. وتفنن المرابطون في ابتكار طريقة هندسية لسقي البساتين، وهي الطريقة التي جادت بها عبقرية عبيد الله بن يوسف المهندس الوافد من الأندلس، فكثرت البساتين في المدينة وحولها واشتهر منها بستان أبي الفضل مولى أمير المسلمين، وصارت مراكش في زمن الإدريسي أكبر مدن المغرب الأقصى، وكان بها جملة من قصور الأمراء والقواد وخدم الدولة، واتّصفت أزقتها بالسّعة، وأمّا رِحاب المدينة فكانت فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة، وبنى يوسف بن تاشفين الجامع الذي تعطّل أيام حكم الموحدين، حيث بنوا جامعا آخر.

واهتمّ المرابطون بمدينة مراكش حتّى أنّ أميرهم علي بن يوسف قد جلب الماء إلى المدينة من عين بينها وبين المدينة عدّة أميال. وكان أمير المسلمين علي بن يوسف قد بنى قنطرة عجيبة في مدينة مراكش، جلب إلى عملها صناع الأندلس و أهل المعرفة بالبناء، لكنّها تحطّمت بسبب السيل الذي احتمل أكثرها[3].

وتمّ تسوير مدينة مراكش بعد نصيحة أبي الوليد بن رشد لأمير المسلمين علي بن يوسف عقب خروج المهدي بن تومرت، فاستمع لنصيحته وسوّرها في (جمادى الأولى سنة 520 هـ/جويلية 1126م)، وبنى جامعها وممنارته، بعد أن جمع الصناع والفعلة، وأنفق في بناء

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص252؛ ص261.

[2] – ذكر ابن سماك العاملي سبب تأسيس مراكش فقال أنّه بعد أن تمكن أبو بكر بن عمر اللمتوني من احتلال أغمات وريكة، وكثر الخلق بها وضيّقوا على أهلها، فطلب الناس منه أن يوسع عليهم ووقع اختياره على فحص مراكش سنة 462هـ، فشرع الناس في بنيان الور دون تسوير، ثمّ استخلف أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على المدينة، فيكون أبو بكر هو أول من اختطّ المدينة. ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقفيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2010، ص58.

[3] –الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص.236

السور سبعين ألف دينار من الذهب[1] إضافة إلى توسعة مسجد فاس أيام علي بن يوسف بداية من سنة(529هـ/1134م) بعد أن كتب صاحب فاس عبد الحق بن عبد الله بن معيشة إلى علي بن يوسف إن الجامع ضاق عن المصلين، فأذن له في الزيادة، كما أنفق مالا كثيرا من أجل سدّ ثلمات سور المدينة، وزاد فيه أبراجا، وبنى سورا يحيط بالمقابر وتمّت الزيادة في جامع فاس سنة (531هـ/1136م) وهي السنة التي بنى فيها تاشفين الناعورة على النهر الأعظم بقرطبة[2].

- عمارة المرابطين في المغرب الأوسط:

وفي المغرب الأوسط ورغم قصر الفترة التي تواجد فيها المرابطون بأرجاء هذا الإقليم، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود عمارة خلّدت ذكرى وجودهم الغير مستقر مثل تشييد مدينة تاجرارت أيام يوسف بن تاشفين في حدود سنة (462هـ/1069م)[3]، وأيضا قام المرابطون ببناء ثلاثة مساجد بالمغرب الأوسط في كلّ من مدن الجزائر وتلمسان وندرومة، ولا يزال مسجد المرابطين بالجزائر حافلا بروائع الفنون الزخرفية التي زيّنت محرابه وقُبَّته العجيبة وبعض تيجان الأعمدة الحاملة لعقوده وأقواسه، ودعائمه المبنية بالحجارة والتي قواعدها مطولة أو مصلبة تعلوها أقواس تشبه حدوة الفرس دون أن تربطها أوتار تحمل سقْفَها المسنم، أمّا دعائم المسجد فكانت تقوم على الحجارة والآجر المملوء والذي تُغطِّيه طبقة من الجبس والجير.

وبلغ عدد هذه الدعائم أكثر من اثنين وسبعين سارية كلها قائمة الزوايا، وفيها المصلبة تبعد كل واحدة عن أختها بما قدره 3.40م، وأمّا مسجد تلمسان فكانت دعائمه تحمل عقودا أو أقواسا أربعة متداخلة ومتقابلة اثنان منها مكسرة الأقواس في شكل حدوة الفرس المدجبة واثنان مسننة متعددة الفصوص بحيث تبلغ فصوصها إلى اثني عشر فصا، والمرابطون هم أول من استعمل هذا النوع من الفصوص كما هو الحال في جامع تلمسان [4].

---

[1] – ابن سماك، المصدر السابق، ص164.

[2] – ابن قطّان، المصدر السابق، ص242؛ 251؛ 252.

[3] – يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص87.

[4] – عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص21-28.

أمّا في إفريقيا فاستمرّ تقلّص العمران وخراب المدن وانحسار نفوذ الدّولة مع تفاقم ضعف الزيريين والحماديين، وفقدت الكثير من المدن بريقها كبغاية التي تهدّم حصنها، والقلعة التي خربتها القبائل العربية وأمّا مدن سوسة وبونة والمهدية وشرشال وجيجل وغيرها من المدن الساحلية فقد تأثرت جرّاء الغزو النورماني المتكرّر.

ب- عهد الدّولة الموحديّة:

تمكّن الموحدون من إنهاء دولة المرابطين والقضاء على آخر أمرائها تاشفين بن علي*، وانطلقوا بكلّ حماسة نحو تحقيق مشروعهم الذي يهدف إلى توحيد شمال إفريقيا والأندلس وقد تحقّق لهم ذلك حيثُ تمّ توحيد المغارب الثّلاث منذ سنة (555هـ/1160م) وبذلك تمّ إسدال الستار عن دولتي بني زيري وبني حمّاد، كما نجح سلاطين الدّولة الموحدية في ترويض القبائل العربية، وبذلك بدأ نوع من النشاط يدبّ إلى البلاد، رغم ما لحق عددا من المدن من التخريب الذي تزامن مع قيام الدولة، مثل مدينة صاع التي ذكر الإدريسي أنّه خربها المصاميد[1].

وكانت مدينة الرباط أو رباط الفتح أولى المشاريع العمرانية التي بُنيت لتستجيب للمتطلّبات العسكرية، فشكّلت بسبب موقعها الاستراتيجي همزة وصل ومعسكرا للجيش الإسلامي القادم من كلّ أنحاء بلاد إفريقية و المغرب* وبدأت فكرة تشييدها في عهد عبد المومن بن علي حين وصل إلى سلى في عام (545هـ/1150م) لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس، وقد أمر ببناء قصبة حصينة في موضع مدينة الرباط، وأقام بمحلاته المؤدية إلى عين غبولة والفعلة معه والمهندسون فأجروا لها الماء من عين غبولة في سرب تحت الأرض حتى قصبة المهدية، ثم صنع له سقاية لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر

---

* - تاشفين بن علي, هو آخر ملوك المرابطين, هزمه عبد المومن بن علي بين الصخرتين, من ظاهر تلمسان, وفرّ إلى وهران يبغي النجاة في أسطوله البحري, فسقط من جرف ليلا, ومات ليلة 27 من رمضان سنة 539هـ, وبذلك انتهى أمر المرابطين, وبدأت دولة الموحدين. يحي بن خلدون, المصدر السابق, ج1ص170.

[1] -الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص247

* - الرباط أو رباط الفتح: شيدها الخليفة عبد المومن بن علي، وبنى بها القصبة والدور والأسواق وأحاطها بالأسوار، وأتم بناءها الخليفة يعقوب المنصور، وفي عهدالسعديين هاجر إليها عدد كبير من الأندلسيين، فاستوطنوا بها وبنو الدور والأسواق. ينظر: عبد الرحيم بن سلامة، المملكة المغربية تعريف بالمدن والقرى والقبائل والأسر والجهات، مطبعة الأمنية، الرباط، ص33.

والجنات المغروسات، وتوافد النّاس إليها من أجل سكناها وبنوا الديار حواليها والجامع والأسواق [1].

وأمر عبد المؤمن بإنشاء المسجد الجامع بمراكش سنة(553 هـ/1158م) وأنشأ له " ساباطاً " يوصل إليه من القصر مباشرة، وزوده بمنبر فخم أمر بصنعه في الأندلس، من خشب العود والصندل، المغطى بصفائح الذهب والفضة، وصنع له مقصورة من الخشب ذات ستة أضلاع، تفتح أبوابها دفعة واحدة بطريقة آلية، وكذا المنبر لا يفتح إلا عند صعود الخطيب، بطريقة آلية كذلك. وكان الذي قام على صنع المنبر والمقصورة على هذا النحو المبتكر، رجل فنان من أهل مالقة هو الحاج يعيش المالقي، وكمل بناء المسجد الجامع في نحو أربعة أشهر، في منتصف شعبان من نفس السنة، وبذلت في بنائه وتجميله وزخرفته جهود عظيمة وأموال جمة[2].

ثمّ بدأ بإنشاء مدينة جبل طارق، لتكون هذه المدينة منزلا للأمير عند إجازته بالعساكر، ومستقراً تتقدم منه " الرايات المظفرة، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم ". وطالب عبد المومن بن علي أن يتمّ اختيار موضع المدينة وخططها بعد مشاورة أهل الخبرة من البنّائين والمهندسين وغيرهم، وحشد السيد أبى يعقوب والي إشبيلية جميع البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء، من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين، وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه، بسيف البحر، وأحكم البناءون فيه بناء القصور المشيدة والديار، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا*، لتعتدل بها الأرض، مبنية بالحجر المنجور والجيار.

وكان الحاج يعيش المهندس من أهمّ مهندسي الدولة الموحدية لذلك أسندت له مهمّة إنجاز هذا المشروع، وتمّ تشييد وبناء الدور والقصور وسور المدينة وتم بناء المدينة الجديدة في (شهر ذي القعدة سنة 555 هـ/ديسمبر سنة 1160 م) وابتنى بها جامع، وقصر للخليفة، ودور

---

[1] – عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، صص358-359.

[2] –عبد الملك بن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص86؛ مُحَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج3ص343.

* – الحنايا: جمع حنية وهي القوس أو تقوس نصف دائري، وهي الدخلة المعقودة غير النافذة، التي تكون أعلى زوايا جدران البناء المربع لحمل القبة، وعملت لغرض وظيفي وجمالي. محمّد رزق، المرجع السابق، ص86.

لأبنائه وحاشيته، وغُرست الحدائق على طولها حذاء البحر، وجُلب إليها الماء العذب، وجدد الحصن والأسوار القديمة، وعنى بتحصين الصخرة، وسمي الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح[1].

وفي أيام أبي يعقوب يوسف تمّ بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادي الكبير، تصل ما بين إشبيلية وطريق طُريانة في ضاحيتها الغربية، من أجل تيسر سبل المواصلات في اتجاه الغرب، بعد أن حشد لها العرفاء والصناع، وتم إنشاؤها في نحو شهر، في (السابع من صفر سنة 567 هـ/16أكتوبر 1171م)[2].

كما شكّل الجامع الأعظم بإشبيلية أحد أهمّ المنجزات العظيمة التي كان لأبي يعقوب الفضل في الشروع فيها وإتمامها على أحسن حال، وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه في شهر رمضان سنة(567هـ/1171م)، وبنى الصومعة سنة (572هـ/1176م) والتي أتمها ابنه أبو يوسف يعقوب، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باسُه، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء، العرفاء، والبناؤون من أهل إشبيلية، ومن سائر قواعد الأندلس، ومن أهل العدوة ولاسيما مراكش وفاس، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة[3].

وعنى العرفاء ببناء القبة التي على محرابه وبنجارتها أعظم عناية، وأقاموا عن يسار المحراب ساباطاً في الحائط، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع، لشهود صلاة الجمعة، وتفنن الصناع في عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب، وفي إبداع نقوشه، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة. واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراكش في الرابع عشر من شعبان عام (571 هـ/1175م)، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم[4] .

وفي أيام أبي يوسف يعقوب تمّ إتمام صومعة المسجد الجامع باشبيلية إضافة إلى عدد من المنجزات مثل إنشاء السوق حول المسجد الجامع الجديد، وأمر أبو يوسف بتوسعة الرحاب

---

[1] -مُحَمَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج3صص379-381

[2] -مُحَمَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج4ص69.

[3] - ابن صاحب الصلاة، المن المصدر السابق، 1987، صص382-388.ابن سماك، المصدر السابق، ص238.

[4] -مُحَمَّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج4صص72-73.

للجامع فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه، وابتدأ الهدم فيها يوم (السبت 7 ربيع الأول عام 592هـ/15فيفري1196م) وأمر بتقويم الدور المهدومة والرباع* التي للناس فيها، واتصل الهدم إلى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم وتم تعويض أصحاب الدور، ومنهم من اغتنم الفرصة للاستزادة، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوع في ذلك الشان، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع ثم نقلت إليها سوق العطارين وسوق التجار من البزازين وسوق المركطيين* والخياطين[1].

واستطاعت القيروان أن تستعيد شيئا من نشاطها، عقب التخريب الذي لحقها بعد هجرة السكان على إثر الغزو الهلالي،[2]، وتحققت بذلك نبوءة أهل النظر الذين نقل عنهم الإدريسي أنهم قالوا: (ستعود إلى ما كانت عليه من العمارة[3]) فأعاد عبد المومن ابن علي وخلفائه عمارتها بعد أن ارتحل إليها وأجلى العرب عنها وطرد الروم منها فعمرت من جديد[4]. واستبحرت تونس في العمران، وشهدت المدينة إعادة ترتيب لسكانها في الحقبة الموحدية بعد أن استقرت بها مجموعات هامة من الجند الموحدي، وتحولت إلى قطب جاذب للمهاجرين من المغرب الأقصى والأندلس[5].

وصار جامع الزيتونة أحد أهم المراكز العلمية التي خلفت القيروان، وكان فيه خمسمائة سارية من الرخام الأبيض، وفي شرقي الجامع الصحن المفروش بالرخام الأبيض، وكان المسجد يشرف على شارع البلد وعلى السوق، وتحت صحن الجامع سقاية عظيمة البناء، وهي سبعة

---

* الرباع: جمع ربع وهو بناء كبير مستقل يتكون من أربعة أوة خمسة أدوار ذات مدخل واحد وسلم واحد يشتمل على فناء أوسط تتقدمه من الجهة المطلقة على الشارع حوانيت ومخازن يتم تأجيرها لأصحاب التجارة المختلفة تعلوها طباق سكنية ذات مداخل مستقلة يتكون كل منها من مسكن صغير بمرافقه تستأجره إحدى العائلات الفقيرة ولا سيما عائلات الصناع وأرباب الحرف بأجر شهري زهيد، وتتجاور هذه الطباق بعضها إلى بعض في الدور الواحد، وتعلوا بعضها بعضا في أدوار علوية مشابهة للدور الأرضي، ويتم الوصول إليها من خلال دهليز يلتف حول الصحن المشار إليه. محمّد رزق، المرجع السابق، ص119.

* المركطيين: هم باعة الثياب المستعملة ولا يزال بفاس سوق المركطال وأصلها لاتيني **Mercatllum**.

[1] – ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، صص396-397

[2] –الزهري، المصدر السابق، صص109-110

[3] – الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص275.

[4] – الزهري، المصدر السابق، ص112.

[5] – محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص149.

أقواس وقوسان فيها أحجار من الرخام محفورة، وعليها أسود من النحاس ترمي الماء من طلوع الشمس إلى غروبها [1] . أمّا مدينة فاس فأصبحت كثيرة الضياع والمباني والقصور[2] . و تمكّنت تلمسان أيضا من التألق خلال عهد الموحدين، وصار لها سور حصين متقن الوثاقة[3].

و بدأت تظهر التعاليم الصوفية وتتأسس في السواحل وطرق التجارة رباطات وزوايا للمتصوفة، شهدت نشاطا لا نظير له، وإقبالا من طرف المريدين، وكان الرباط عبارة عن بيت بسيط للشيخ، قليل الإرتفاع حوله أرض خالية تحيط به بيوت وخيام المريدين، وتُمارس فيها الطقوس الصوفية من الذكر وقراءة الأوراد والحضرة وغيرها من الرياضات الروحية.

ويبدو أن ظاهرة الرباطات والزوايا أسّست لما بات يعرف بالقبيلة الدينية وقد أضرت بالفكر العمراني لدى ساكنة بلاد إفريقية والأندلس، خصوصا بعد أن جذبت هذه الرباطات إليها شيوخ القبائل الهلالية خصوصا في القرن التّاسع الهجري الذي توزّعت فيه الزوايا والرّباطات عبر ربوع المغرب الإسلامي فمثلا في المغرب الأوسط ذاع صيت زاوية العبّاد وزاوية سيدي أبي الحسن وزاوية عبد الرحمن بن يعقوب وزاوية الحسن بن مخلوف أبركان، وزاوية أبي يعقوب العشعاشي، والزاوية الثالبية ورباط محمّد بن عمر الهواري وزاوية مُحَمَّد بن يوسف السنوسي والزاوية الملاريّة، وغيرها من الزوايا والرباطات[4].

وكان على دولة الموحدين أن تواجه حركات التمرد التي قامت بها القبائل العربية من جهة وابن غانية من جهة أخرى، ومحاولات ابن مردنيش بالأندلس وأطماع الممالك النصرانية، وكلّها أدت إلى تخريب عدد من المدن والحصون والقلاع، ونزوح ساكنتها إلى مدن أخرى. ويمكننا من خلال كتب الجغرافيا أن نأخذ لمحة عن حال المدن والعمران في بلادي المغرب والأندلس، خصوصا كتاب الجغرافية لمحمّد بن أبي بكر الزهري.

وأشار الزهري إلى مدينة سرقسطة بالأندلس التي وصفها بالمدينة العظيمة وأنّها قديمة البناء، وتحدّث عن سورها فأخبرنا أنه يبلغ ارتفاعه أربعين ذراعا، وتطرّق إلى جامعها الذي صُنع

---

[1] – الزهري، المصدر السابق، ص108.

[2] – الإدريسي، المصدر السابق، مج1 صص242-243.

[3] – المصدر نفسه، مج1 ص249.

[4] - أمين كرطالي، الفقهاء والحياة السياسية في المغرب الأوسط في القرنين (9-10هـ/15-16م)، رسالة ماجستير، اكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014، صص33-34.

محرابه من حجر واحد من الرخام الأبيض[1]. واستطاعت قرطبة أن تحتفظ بمكانتها، وكان فيها الكثير من العجائب والتحف المعمارية[2] .

وفي (شوال سنة 633 هـ/ جوان1236 م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام، بسقوط قرطبة في أيدي الإسبان؛ فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس. وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة. ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عصراً يصعب تحديده، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة، ولم يبق من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع، الذي ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة[3].

وفي أواخر عهد دولة الموحدين بدأت السلطة المركزية تضعف قبضتها، وهو ما أخلى الجوّ للقبائل المتمرّدة، وأثّر ذلك على العمران خصوصا في المدن التي لم تعد ذات أهميّة كبرى بالنسبة للموحدين، فتراجع عمران مدن كثيرة في المغرب الأوسط مثل القلعة[4] ومدينة تاهرت[5]، وبدأت مدن أشير ومليانة والجزائر وتلمسان تشهدُ نموا عمرانيا وتشكل بؤرة استقطاب للنازحين من المدن المنكوبة بسبب تردي الأوضاع السياسة وكثرة تحرشات القبائل البدوية.

أمّا في السّودان الغربي فاستمّرت العمارة الإسلامية في عدد من المدن، لا سيما في عهد الملوك الأقوياء من أمثال منسا موسى 1304-1332م الذي حكم مملكة مالي وصبغها صبغة إسلامية، وشيّد الكثير من المباني واهتمّ بالعلماء[6].

---

[1] -الزهري، المصدر السابق، صص81-82.

[2] -المصدر نفسه، ص87.

[3] -محمّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج1صص442.

[4] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص255.

[5] - المصدر نفسه، مج1 ص256.

[6] -محمّد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007 ص83.

ت- عهد ما بعد الموحدين:

عقب سقوط دولة الموحدين على يد بني مرين*، أصبحت بلاد المغرب يتقاسمها الزيانيون في الإقليم الممتد من شرقي بجاية إلى وجدة، يجاورهم المرينيون من الناحية الغربية والحفصيون من الناحية الشرقية. وكان الصراع على أشده بين سلاطين هذه الدويلات الثلاث، وأسفر هذا الصراع عن حصار للمدن وتخريب البعض منها، كما أن القبائل البدوية سواء العربية منها أو البربرية سرعان ما عادت إلى عادتها القديمة بالإغارة على المدن والقرى، وبذلك أصبحت الطرق والمسالك غير آمنة، والحياة السياسية غير مستقرة.

وفي الأندلس بدأت نهاية دولة الإسلام في هذا الإقليم تلوح بقوّة، فتهاوت المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات الممالك النصرانية التي اتّحدت فيما بينها، ولجأ سكان المدن المتهاوية إلى ما تبقى من مدن الأندلس خصوصا غرناطة التي تفنن بنو الأحمر في تحصينها وتعميرها وتحويلها إلى آية من آيات الله في الحسن والعظمة بينما فرّت جموعٌ أخرى من الأندلسيين صوب المدن المغربية فنقلوا إليها الكثير من الفنون المعمارية[1].

وساهم تفشي التصوف والرباطات إلى تبسيط العمارة في تلك الفترة وساد نمط من الفكر العمراني البسيط الذي يجنح إلى الزهد في الحياة فيما احتفظت بعض المدن بمكانتها خصوصا المدن السلطانية وحواضر الملك مثل تونس الحفصية[2]وتلمسان الزيانية[1] وفاس المرينية[2] إضافة

---

* الدّولة المرينية تُنسب إلى بني مرين, وهم فخذ من زناتة, وهم ولد مرين بن ورتاجن, كانوا بجنوب القيروان, ينتجعون, ويصلون إلى بلاد السودان, إلى أن وقعت فتنة بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين, سنة 601هـ/1204م, فقصدوا نحو المغرب, ونزلوا الجبل المطل على ملوية, وبعد سنة 610هـ/1213م, عقب هزيمة العقاب, قاموا بالدخول إلى بلاد المغرب, وتوسعوا في أريافه, و تمكن أبو بكر بن عبد الحق المريني عقب مقتل السعيد الموحدي من دخول فاس, وبويع له بالخلافة, ليبدأ عهد الدولة المرينية. ابن أبي زرع, الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنشور للطباعة والوراقة، صص14-72.

[1] -شجّع أواخر سلاطين الدولة الموحدية أولا ثمّ سلاطين الحفصيين والزيانيين والمرينيين على توطين الأندلسيين، وعدم التعرض لهم، وتسهيل عمليات دمجهم في مجتم المغرب الإسلامي، مقابل أن يساهموا في تعمير المدن وزراعة الأراضي، وقد حفظ لنا المصادر التاريخية ظهيرا للخليفة الموحدي الرشيد يأمر فيه بتوطين أهل شرق الأندلس من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، برباط الفتح وحثّ الولاة والعمال على ضرورة تأمين سبل العيش لهم، وأن يكرموا غاية الإكرام. ينظر في ظهير سلطاني ذكره أحمد بن عميرة المخزومي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، تحقيق: محمّد بن معمر، دار الكتب العملية، بيروت، ط1، 2014، صص446-448.

[2] -يقول ابن الشماع: ( تونس أحدثت في ثمانين من الهجرة -699-700م وهي اليوم قاعدة البلاد الافريقية وأم بلادها، وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين، وهاجر إليها أهل الأقطار من الأندلس والمغرب، وغيرهما فكثر خلقها، واتسع بشرها، ورغب الناس في سكناها، وأحدث فيها المباني، ..ولها سور يدور بها، ودورها أربع وعشرون ألف ذراع، وجامعها مليح الصنعة حسن الوضع مطل على

إلى المدن التي كان ينزلها الأمراء والعمال مثل جزائر بني مزغنى ووهران ووجدة* وبجاية التي كانت في الغالب مدينة حفصية، وبسكرة التي تولى عليها بنو مزني، ومراكش ومكناسة والعرائش وأصيلا وغيرها من المدن.

وكانت تونس الحفصية قد حظيت بعمارة مهمّة ففي عام (629هـ/1292م) بنى أبو زكريا الحفصي جامع الموحدين وصومعته ومدرسة الشماعين وسوق العطارين وحصن تونس[3] وأمرت عطف أم المستنصر ببناء جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية وفي سنة(648-1254م) ابتدئ البناء في موضع أبي فهر ونصبت المقصورة بجامع الموحدين. أمّا في أيّام أبي زكريا الواثق فقد قام بإصلاح جامع الزيتونة[4]، وحتّى في أيام الفتن والدسائس كان المتغلبون ربّما يبادرون إلى البناء والتعمير مثل ما فعل الدعي أحمد بن مرزوق المسيلي حين بنى جامعا للخطبة بتونس ويسمى جامع الزرارعية ، وأقيمت فيه الصلاة في (20شعبان سنة 681/1283).

وفي إبّان حكم أبي عبد الله بن عصيدة الذي بويع (694هـ/1295م) كانت أيامه أيام هدنة وعافية حيثُ بنيت فيها عدد من الأبراج، وعندما وقعت تونس تحت قبضة أبي الحسن المريني كانت جيوشه لا تحصى فشرع في بناء مدينة فوق سيجوم سماها المنصورة لسكنى من

---

البحر)..محمّد بن أحمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمّد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984، تونس، ص36

[1] – كانت تلمسان عاصمة الدولة الزيانية، يقول في وصفها يحي بن خلدون: (بها للملك قصور زاهرات، اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة، مما زخرفت عروشه، ونمقت غروسه). المصدر السابق، ص86.

[2] – اهتم المرينيون بفاس، فشرع يعقوب بن عبد الحق في شوال من سنة 674هـ في بناء المدينة البيضاء، وأتمها في ذي الحجة سنة 677هـ، ابن سماك، المصدر السابق، ص269.

* –وجدة: عاصمة المغرب الشرقي وأقرب مدينة مغربية الى الحدود الجزائرية تقع وسط سهول أنقاد على ارتفاع 550م أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ وبنى بها الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون عدة مآثر, احتلها الاتراك سنة 1210هـ واستردها المولى سليمان سنة 1121هـ, تقع المدينة على بعد 14كلم من الحدود الجزائرية.عبد الرحيم سلامة, المرجع السابق، ص 107.

[3] –ابن الشماع، المصدر السابق ص56.

[4] –المصدر نفسه، ص75.

جاء معه من الجيوش، [1]. وقد بلغت دُورُ تونس بحسب تقدير ابن الشماع حوالي 7000دار في سنة( 772-1370م)[2].

ومع نهايات القرن التّاسع سقطت الأندلس، وضعف أمر الدويلات المغاربية، لتشرع مملكتي إسبانيا والبرتغال في شن الغارة على سواحل شمال إفريقيا وبذلك سقطت سبتة ومليلة الغربية ووهران الزيانية و وبجاية الحفصية .

واستشرت الرباطات والأضرحة وتغلغل الفكر الصوفي، وانحسر العمران وأصبحت المسالك مخوفة، بسبب كثرة قطع الطريق وممارسة القبائل العربية للحرابة، وأصبحت تظهر بعض العمارة في قرى ومدن الزاب مثل تقرت وبسكرة وطولقة بسبب تقلص عمارة المدن الساحلية من جرّاء ما أصابها من تربّص الأعراب ببواديها وتسلّط الغزاة على مراسيها وموانئها.

وعرف السودان الغربي في هذه الحقبة خصوصا في سُلطان مملكة صنغاي أيام الأسكيا مُحَمَّد( 898-1493م) ازدهارا من حيث عدد المدن في المملكة والتي تجاوز عدد سكان بعضها مئة ألف نسمة، وأهمها جاو وولاتة وجني وتمبكتو وكلها كانت عامرة بالمساجد والمدارس، خصوصا مدينة تنبكتو التي تعاظمت تجارتها وازدهر عمرانها[3].

[1] -ابن الشماع، المصدر السابق، صص56-75.

[2] -المصدر نسه، ص105.

[3] - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، صص84-114؛ إسماعيل العربي، المرجع السابق، صص323-324.

كثيرة هي العوامل التي تُنعشُ العمران وتؤدّي إلى استبحاره كوفرة السكّان وتحضّرهم، واعتدال المناخ وملاءمته، إضافة إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي وغيرها من الأسباب والعوامل. وعلى العكس من ذلك فإنّ قلّة السكّان و عدم تحضّرهم، وصعوبة المناخ وكثرة الاضطرابات السياسية وتوالي الأزمات الاقتصادية كلّها قد تمحو محاسن العمران أو تنقض أساساته.

وتمثّل الكوارث الطبيعية من زلازل وفياضانات وأوبئة ومجاعات وغيرها من الجوائح أحد الأسباب التي تُؤدّي إلى تقليل السّاكنة، وتقليص العمارة، فتؤثّر سلبا على الأمن الغذائي، وربّما نجم عنها اضطراب سياسي زاد من تدهور الأمور وانفراط عقدها.

ومما يؤسف له في الرواية التاريخية الإسلامية قلّة المعلومات المتعلّقة بالكوارث الطبيعية، إلا إشاراتٍ عابرة في حوادث السّنوات، أو شذرات باهتة في كتب الجغرافيا والرحلات، أو نصوص مناقبية و نوازلية، ومعلومات عرضية ترِدُ هنا و هناك.

إنّ النُّصوص المناقبية والنَّوازلية رغم قلّتها، فإنّها في الغالب تكاد تكون خالية من التأطير الزماني والمكاني[1]، فالرواية المناقبية غرضها إظهار المنقبة لا الحديث عن المحنة والمسغبة، فيما تهدفُ النّازلة إلى إظهار مناط الفتوى، ومقاصد الشريعة، وأدلّة المجتهد وتوضيحاته، وليس النّازلة بحدّ ذاتها وما صاحبها من أخبار أو ما ترتّب عنها من تداعيات.

أمّا كتب التّاريخ فغالبيتها كُتبت لتمجيد دولة وذكر مآثرها، والحطّ من دولة منافسة وتعديد مثالبها، لذلك فهي تنشطّ لذكر ما يحدث من كوارث في دولةٍ أخرى فيما تُنوّه بصنيع السّلطان ومواساته عند حلول المحنة ونزول المسغبة.

- الكوارث الطبيعية وعلاقتها بالأحوال السياسية:

إنّ الكوارث التي أحدقت بالمدن في الغرب الإسلامي كان لها تأثير واضح وضرر بالغ بالعمران وإستقرار السكّان، ويوضّح ذلك ابن خلدون عند حديثه عن الطّاعون الجارف حيث يقول: ((إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثّامنة من الطّاعون

[1] -عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص20.

الجارف الّذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن لعمران ومحاها وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التّلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السّبل والمعالم وخلت الدّيار والمنازل وضعفت الدّول والقبائل وتبدّل السّاكن[1])).

هذا النصّ يكفي لمعرفة إضرار الأوبئة وغيرها بالعمران والسكّان، وعلاقة التّلازم بين الديمغرافيا والعمران، ومن جهة أخرى يوضّح كيف أنّ حجم الأوبئة والكوارث يتضاعف كلّما ضعُفت الدّولة وأصابها الهرم.كما أنّ الطّاعون غالبا ما يتزامن مع الملاحم والمجازر وسفك الدّماء الناتج عن الصراعات العسكرية بشتّى أنواعها، ففي أواخر عصر الولّاة حين اضطرب أمر إفريقية والمغرب خصوصا في عهد عبد الرّحمن بن حبيب، أصاب إفريقية طاعون استمرّ سبع سنين[2].

ويلاحظ الحسين بولقطيب أنّه في عهد الانجازات العمرانية التي تزامنت مع عهد عبد المومن بن علي لا نجد أي إشارة إلى المجاعات والأوبئة، بخلاف بقية السّلاطين الذين شهدت فتراتهم كثيرا من الهزائم العسكرية، خصوصا بعد عهد الناصر عقب موقعة العقاب [3].

أي أنّ هناك علاقة وطيدة بين التقهقر السياسي والعسكري للدولة ومدى تأثير الكارثة على السكان والعمران، أو لنقل أنّه حين تكون الدّولة قوية ومستقرّة سياسيا وعسكريا واقتصاديا يُمكنها تلافي أضرار الكارثة والتّخفيف من حدّتها بما يتّخذه السّلاطين من تدابير، وما يُظهره المجتمع من يقظة، بينما يحدُث العكس حين تصيرُ الدّولة ضعيفة، ويفقدُ السّاكن الثّقةَ في الدّولة، وهو ما يُفاقم الأزمة، ويزيد من ذروة الاحتكار والمضاربة وتزويير العملة والسّرقة والنهب وقطع الطريق والهجرة. فالدّولة القويّة تجعلُ الشعور بالكارثة خفيف الوطأة، بينما الدّولة الضعيفة تكون سببا مباشرا في تزايد الشّعور بالخطر عند حلول الأزمة بسبب عجزها

[1] –ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج1صص42-43.

[2] – النويري، المصدر السابق، ج24ص65.

[3] –الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة المغرب في عهد الموحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص48.

عن تقديم حلول حقيقية وضعف أجهزتها الأمنية في منع عمليات النهب والزحف وقطع الطريق.

**أ- الكوارث الطبيعية في الأندلس:**

كثيرة هي الكوارث الطبيعية التي وقعت في الأندلس التي أسفرت عن الإضرار بالسّاكنة، ونجم عنها أعدادٌ من الموتى، واشتدّ بسببها الغلاء، ففي سنة (526 هـ/1132م) اشتدت المجاعة والوباء بالناس في قرطبة، وكثر الموتى وبلغ مد القمح خمسة عشر دينارا[1] وكذلك في سنة(529هـ/1134م) أتى الجراد على ما في الأرض من زرع ووكلأ وتوالى ذلك سنوات (530هـ/1135م) حيث أثر على زرع الأندلس التأثير الفاحش، وفي سنة (531هـ/1136م) أيضا أضر الجراد بالزرع كثيرا[2].

وربما تزامن حدوث الكوارث في الأندلس مع ما كانت تتعرض له المدن الإسلامية من حصار وتحرّش مسيحي، مثل ما حدث لأهل إشبيلية سنة (645هـ/1247م) بعد أن تفاقم الحصار المسيحي الذي طوق المدينة، مع اشتداد المجاعة وانشغال الموحدين برد المرينيين، فعدمت الأطعمة ومات بالجوع خلق كثير[3].

ولم تنفرد المجاعة أو الطاعون وحدهما بتهديد سكّان المدن الأندلسية بل نجد أيضا العواصف والسيول الجارفة، نظير ما أصاب بلنسية من فياضانات وسيول طامية في أواخر القرن (5هـ/11م) مما أسفر عن خسائر مادية وبشرية فادحة[4]. و اجتاح إشبيلية سيلٌ عظيم سنة(564هـ-1169م). ومن أجل تدارك الأمر أمرَ أبو يعقوب يوسف ببناء سورها من جهة الوادي من ماله بعد هدم السَّيل العظيم لجنباتها وجهاتها .

إنّ السيول والمجاعات وغيرها من الكوارث كانت تُهلك أعدادا كبيرة، فالسيول الطامية بإشبيلية عام(579هـ/1201م) هلك فيها أمم لا يحصيهم إلا الله[5]، كما أنّ هذه الكوارث ساهمت في فرار ونزوح السكّان، ففي عام (635هـ/1237م) هرب أكثر سكّان جنوب

---

[1] -عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص21.

[2] - ابن قطّان، المصدر السابق، ص242؛ 250.

[3] -عبد الهادي البياض، المرجع نفسه، 340.

[4] -المرجع نفسه، صص46-47.

[5] -المرجع نفسه، ص52.

الأندلس وشمال المغرب الأقصى من البلاد، بسبب الوباء وما أعقبه من غلاء شديد[1]. ونفس الشيء حدث قبل ذلك بمالقة وقرطبة عام(633هـ/1236م)، إذ أدّت الكوارث إلى هجرة السكان نحو المغرب جماعات وفرادى، مما أثر على بنية هذه المدن التي قال عنها ابن القطان: (طحنتها النوائب، واعتورتها المصائب، وتوالت عليها الشدائد والأحداث فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر إسمها وضخامة حالها[2]).

ومن العجيب أن تكون لهذه الكوارث الطبيعية والتي رغم إسهامها في تراجع ديمغرافية السكان في المدن المتضررة بعض النتائج الإيجابية بالنّسبة للمدن المستحدثة، ففي مجاعة (635هـ/1237م) بادر الرشيد الموحدي إلى إصدار ظهير سنة (637هـ/1239م) يقضي بتهجير جماعي لسكان شرق الأندلس صوب المغرب لتعمير رباط الفتح واتخاذ مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم[3].

وكان للزّلازل في الأندلس حظّ في تخريب العمران وتهجير السكّان، ففي زلزال قرطبة سنتي (565-566هـ/1170/1171م)حصل نزيفٌ بشريٌ، بسبب كثرة من قضى تحت الأنقاض، بينما فضّل الناجون من الهلاك الهجرة الجماعية بعيدا عن المناطق الأكثر تضررا مثل موضع أندوشر الذي أصبح خلاء وخرابا من هذه الزلزلة التي كانت فيه أشد ما كانت فبقي مهجورا مدّة لا تقل عن ثلاث سنوات[4].

أمّا الحرائق فساهمت أيضا في إتلاف العمارة بالأندلس وإزعاج الساكنة، ففي سنة(324هـ/936م)، التهم حريق عظيم الدكاكين في سوق قرطبة، واندلعت النيران في مسجد أبي هارون وما جاوره، واحترق وتداعى ثمّ اتصلت النار بسوق العطارين، وما جاوره من الأسواق والأحياء واتسع نطاقها بصورة مرعبة، فأمر عبد الرحمن الناصر بعد انتهائه أن يعاد بناء مسجد أبي هارون و ما تهدم من الدور والصروح العامة[5].

ب- الكواث الطبيعية في المغرب الأقصى:

---

[1] -عبد الهادي بيّاض، المرجع السّابق، ص116.

[2] -المرجع نفسه، ص120.

[3] -المرجع نفسه، ص121.

[4] -المرجع نفسه، ص130.

[5] -محمّد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج1صص425.

شهدت بلاد المغرب الأقصى العديد من الجوائح الطبيعية التي أثّرت على المجال والسّكان[1]. ففي 472هـ/1079م، كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس بالمغرب مثلها، هدمت البنيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم، ووقعت الصوامع والمنارات[2].

وتوالت سلسلة من القحوط والمجاعات والحرائق على المنطقة، ففي سنة (533هـ/1138م) وقع الحريق في وسق مدينة فاس، و اتّسعت شرارته من رأس عقبة الخرازين فاحترق سوق الثياب والقرافين وغير ذلك من الأسواق، فتلفت فيه أموال جليلة، وافتقر فيه خلق كثير، وانطلقت أيدي المفسدين بالسرقة والنهب، فاشتد القاضي علي بن سليمان على أهل الريبة ممّن استغلوا الأزمة حتى أعيد بعض الذي نهبوه[3] وفي سنة (534هـ/1140م) حدث الجدب فجفَّت الأرض، الأمر الذي خلّف الكثير من المساكين ونتج عنه مجاعة سنة (535هـ/1141م).

وأمّا مراكش فبسبب مجاعة (536هـ/1141م)، التي أصابت أغمات أصبحت منطقة شبه مهجورة، ولم يعد لسكان أغمات المنكوبين من ملاذ سوى اللجوء إلى رباطات الأولياء طمعا في الحصول على ما يسد الرمق، بعد أن عصفت بهم المسغبة حتى ضاقت الأرض برحبها على المساكين[4].

وبسبب المجاعة والبؤس وتتابعهما، غلت الأسعار في بلاد المغرب من سنة (537 هـ /1143م)إلى سنة (543هـ/1149م)، وكان أشده في سنة (542هـ/1148م)، وأكل الناس بعضهم بعضا[5].

وفي سنة(571هـ/1175م) نزل بمراكش طاعونٌ مات فيه بشر كثير وقضى بسببه عدد من أولاد الخليفة عبد المومن وهم السيد أبو عمران، ثم أخوه أبو سعيد، ثم أخوهما أبو زكريا

---

[1] -الحسين بولقطيب، المرجع السابق، ص42.

[2] -عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص75.

[3] - ابن القطان، المصدر السابق، ص268.

[4] -عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص118.

[5] -النويري، المصدر السابق، ج22ص370؛ عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص21.

صاحب بجاية، والشيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي، والقاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف[1]

وأمّا الأوبئة فكان لها تأثير واضح خصوصا وباء (610هـ/1213م) الذي تحيَّف النَّاس إلا قليلا، مما أدى إلى حصول نزيف بشري أسهم من دون شك في تغيير البنية الديمغرافية للمناطق المستهدفة. وحين استفحلت المجاعة سنتي (618 هـ و619هـ /1221و1222م)، ارتفعت أعداد الضحايا بفاس فقلَّت الجبايات بالمدينة، ومات أكثر الناس جوعا وقل الإنفاق على جامع (القرويين)، ويوضّح ابن أبي زرع العلاقة بين الكارثة والديمغرافيا، عند قوله عن مجاعة(630 هـ/1232م) التي وصفها بالشديدة، والتي أصابت مدينة سبتة:( وفيها خلت بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء ووصل قفيز القمح ثلاثين دينارا).

وإذا كان للمجاعة والطّاعون تأثيرٌ مباشر على الكثافة السكانية فإنّ الزلازل والفياضانات كان لها تأثير مباشر أيضا على المنشآت العمرانية، ففي سنة (626هـ/1229م) خلّف فيضان وادي فاس خرابا عاما أتى على البنية التحتية، وقضى على الطاقة البشرية، وفي سنة (626هـ/1229م) كان السيل العظيم بمدينة فاس الذي هدم من سورها القبلي مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاثة بلاطات، وديارا كثيرة وفنادق من عدوة الأندلس[2].

كانت المدن الكبرى أثناء حدوث الكوارث تضطر إلى الدّفاع عن نفسها ومنع تسرّب جماعات النّازحين ممن تضرّر من الكوارث، وذلك خوفا من نقل الوباء أو تنامي عمليات السرقة والغصب، فقد أغلقت فاس أبوابها في وجه المتضورين جوعاخوفا مما يعقب اكتساحهم لها من نهب وسطو، وتمّ إغلاق الأبواب الرئيسية للمدينة سنة (620 هـ/1223م)[3].

كما شهدت مراكش حوادث مشابهة، فقد عصفت بأهلها المجاعة سنة(632هـ/1235م)، وضاق البلد بالضعفاء، فآثروا الفرار بأنفسهم ولم يبق بالبلد إلا الأقل ممن لا يستطيع

[1] – ابن سماك، المصدر السابق، ص252.

[2] –عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص54.

[3] –المرجع نفسه، ص119.

خروجا[1]، ولعلّ ذلك ما أدّى إلى أفول نجم مراكش، حتّى قال حسن الوزان:( أن ثلثي المدينة المسكينة غير مسكون، وتوجد أنقاض الخرائب المتراكمة في الطريق إلى المسجد الجامع). وقال حسن الوزان أن المدينة صارت في مرحلة الشيخوخة المبكرة[2]. ونفس الشيء قاله عن الرباط التي صارت في أسوأ حال، حتى أنه لم يعد بها أكثر من أربعمائة دار مسكونة قرب قصبة المدينة وبعض الدكاكين الصغيرة[3].

ت- في إفريقية والمغرب الأوسط:

إذا كان إقليما المغرب الأقصى والأندس قد حظيا بكتابات ترجمت لأهم الكوارث والمجاعات التي ألمت بهما، فإنّ المغرب الأوسط وبدرجة أقل إفريقية كانت على العكس من ذلك حيثُ لم تتحدّث كتب المصادر إلا بصفات ناذرة عن الكوارث الطبيعية التي ألمت بهما، إلا ما نجده من حديث أصحاب الرحلات والجغرافيين العرب عن هواء قابس وفساده الأمر الذي حوّل المدينة إلى بؤرة لوباء يتجدد في كلّ مرة[4]، أو إشارات عن بعض الأودية القريبة من القيروان مثل وادي زرور إذا حمل أهلك ما حوله من القرى والمنازل[5]. إضافة إلى برقة التي ذكر العبدري أنّه حل بها الخراب وأقفرت دون أن يحدّد أسباب ذلك، لكنّه واضح أنه بسبب المجاعات والقحط[6].

وكانت إفريقية قد عرفت عدّة مجاعات مثل مجاعة سنة (260هـ/873م) وهي مجاعة عامة أصابت المشرق والمغرب بسبب الوباء والطاعون[7]، وفي سنة( 266هـ/879م) كان هناك قحط عظيم ارتفعت بسببه الأسعار في إفريقية[8]. وكذلك في سنة (303هـ/915م)كان بافريقيا وباء كبير مات على إثره خلق كثير، كثير منهم من الأعيان وذوي النباهة [9].

---

[1] -عبد الهادي بياض، المرجع السابق، ص120.

[2] -حسن الوزان، المصدر السابق، ج1 صص128-130.

[3] - المصدر نفسه، ج1ص202.

[4] - البكري، المصدر السابق، صص87-88.

[5] -المصدر نفسه، ص109.

[6] - العبدري، الرحلة المغربية، ص134.

[7] - ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص158

[8] - المصدر نفسه، ج1ص160

[9] - المصدر نفسه، ج1ص194.

وفي القرن السّابع الهجري حدثت ببرقة مجاعة دفعت الكثير من السكّان إلى التفرّق بين البلدان المجاورة مغربا ومشرقا، وهو ما يمكن أن نستخلصه من رواية أوردها التيجاني عن أحد القضاة العدول الذي حرر في عقود إشهاد ما يُثبت أن ركبا فيه نيف على سبعمائة نسمة جاء من برقة وأنه لم يخلص منه حاشا مائة أو نحوها، وأما سبب ذلك أنهم لم يجدوا هنالك ما يقتاتون به))[1].

من جهة أخرى فإنّ الأزمات السياسية والعسكرية فاقمت من حجم الكارثة وحدّة الشّعور بها، ففي حوادث سنة(581-606هـ/1185-1209م) التي شهدتها عدّة مدن في المغرب الأوسط والجهات الشرقية من إقليم إفريقية على إثر هجمات بني غانية خصوصا بجاية ، زادت أعمال النهب وتسارع الخراب إلى بعض المدن كتاهرت، كما أدّى ذلك إلى وقوع مجاعة محلية ببجاية ثم أعقبها وباء(سنة 588هـ/1192م)[2]. وفي سنة (766هـ/1364م) نزل الطاعون بتونس فمات فيه ابن تافراجين في ربيع الأول وهو من أعظم رجالات السلطنة الحفصية آنذاك[3].كما وقع في سنة (805هـ/1402م) وقع الوباء بتونس وجهاتها[4].

وفي الدّولة الزيانية أصبح وباء الطاعون يظهر على رأس كل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة تقريبا عقب الوباء الجارف، ويذهب بالآلاف من الناس، كما ظهر الطاعون في المغرب الأوسط عام (845هـ/1442م)، وانتشر في مدينة تلمسان وأتى على كثير من سكانها، و تعرضت تلمسان قبل ذلك لمجاعة شديدة سنة (776هـ/1373م) فعم البلاء بالبلاد بعد أن تسبب فيها إعصار عظيم بإهلاك زرع تلمسان وحيوانها، فأكل الناس بعضهم بعضا[5].

وأضرت الكوارث بالعمران بطريقة أخرى، إذ أنّ النّزوح الريفي عقب الأزمات أخلّ بالعمران في المدن وأدّى إلى تبدّي المدينة واكتظاظها، وربّما توسّعت بطريقة فوضوية مخالفة لتخطيط

---

[1] -عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص123.

[2] - محمّد عيساوي، الكوارث الطبيعية على بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (07-08هـ/13-15م)، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 02، العدد 02، صص229-244، ديسمبر 2018، ص234.

[3] -ابن الشماع، المصدر السابق، ص105.

[4] -أحمد بن حسين بن القنف القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيةن تحقيق: محمّد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص199.

[5] - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، صص251-255.

المدينة وقدرة استيعابها، كما أنّ خلوّ الأرياف من السّاكنة كان له تأثير بالغ على الزّراعة والثروة الحيوانية[1]، ومن الناحية الدينية فإن الكوارث الطبيعية جعلت جزءا هامّا من السّاكنة يهرعون إلى شيوخ الطرق والزوايا والصلحاء، ويُقبلون على التوبة، ويزهدون في الدنيا وعمارتها.

[1] – مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب لأوسط (588-927هـ/1192-1520م)، ماجستير، 2008-2009، جامعة منتوري، قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، صص237-238.

شهد الغرب الإسلامي إبّان الفترة الوسيطة الكثير من الحروب والهجرات التي كان لها تأثير بالغ على العمران، من حيثُ تخريب الأسوار وتدمير القصور و تهديم القناطر وترويع السكّان وحرق الممتلكات وثلم جدارات البيوت، وقطع الأقوات وخلوّ الأسواق من السلع والمؤن. وكانت أسباب اندلاع تلك الحروب ودوافعها مُتعدّدة، فبعضها صاحبت قيام الدّول وتأسيسها، و أخرى اندلعت بين الدّولة والمنشقّين عنها من عمّال أو قبائل أو مُدن ثائرة. إضافة إلى الحروب التي تندرج ضمن ما يُعرف بالجهاد ضدّ الكفّار.

- الصراع بين الدوّل وضدّ المتمرّدين:

وخلال القرنين الثّاني والثّالث الهجريين، نجد أنّ مدينة تونس التي لعبت دورا مهما في تنشيط البحرية الإسلامية، و عُرفت بدار الصناعة كانت مُسوّرة بسور من لبن وطين وكان سورها مما يلي البحر بالحجارة، لكنّ سورها تعرّض للهدم أيام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، وذلك حين خالف عليه منصور الطنبذي[1]. ونفس الشيء حدث لمدينة القيروان التي أمر زيادة الله بهدم سورها ونزع أبوابها بسبب تحالف المدينة مع منصور الطنبذي [2].

وفي المغرب الأوسط فإنّ مدينة تيهرت قد أصابها الكثير من التّخريب بسبب الصراع بين أبناء الأسرة الرستمية، وأيضا بسبب الفتن التي أجّجها النكّار والواصلية وأتباع يزيد فندين. غير أنّ التدهور الكبير الذي عرفته المدينة كان إبان الفتنة القائمة بين العرب والعجم خصوصا بعد اغتيال الوزير ابن عرفة في ولاية أبي بكر بن أفلح والتي كان من جرائها إضرام النيران في درب العجم والنفوسيين[3]. وقسمت هذه الصراعات الداخلية المدينة، فبنى العجم ونفوسة والرستميون في العدوة المعروفة بعدوة نفوسة حصنا وشيدوه، وبنت العرب والجند حصنهم في ظروف عصيبة، تحت وقع النبال، وأسّسوا عدّة أبراج وركّبوا لها أبوابا[4]. وتسبّب العداء بين الأغالبة والرستميين في تخريب الرستميين لمدينة العباسية، التي أرادها الأغالبة مدينة تجارية رائدة، فيما نظر إليها الرستميون كضرّة لمدينة تيهرت.

---

[1] - اليعقوبي، المصدر السابق، ص188.

[2] - النويري، المصدر السابق، ج24 ص112.

[3] - ابن الصغير، المصدر السابق، ص70

[4] - المصدر نفسه، صص71-72

وفي أقصى بلاد المغرب نجد أنّ مدينة أصيلة بنيت بعد تعرضها لغارات الفايكينج "المجوس" وذلك سنة(229هـ/843م) وهو ما حوّل ساحلها إلى رباط استقطب الصّالحين والمتطوّعين من كل الأقطار[1]. ثمّ تكرّر الأمر في الأندلس التي رغم أنّها عاشت أقوى أيّامها في ظلّ الخلافة الأموية، فإنها تعرضت سنة (245هـ/859م) لغارات الفايكنج، والذين هجموا على إشبيلية وحلّوا بالحاضرة وأحرقوا الجامع، ثم جازوا إلى العدوة، وأغاروا على أهل تدمير، ودخلوا حصن أريوله، وقاموا بالسّلب والنّهب والتخريب[2].

وفي القرن الرّابع الهجري كانت الدّولة الفاطمية تسعى لتثبيت أركانها، وقمع الثّورات المناوئة لها، الأمر الذي تسبّب في خراب كثيرٍ من المدن والمراكز العمرانية. خصوصا مدينة رقادة التي انتهبها الناس حين علموا بفرار زيادة الله عنها سنة (296هـ/908م)[3]. و أدّت ثورة أبي يزيد إلى هدم عدد من الحصون، وخراب عدد من المدن والقرى، مثل صلتان والتي هي منزل قبيلة بني صلتان، إذ سيّر إليها أبو يزيد جيشا تحت قيادة عامله مستوية النكاري سنة (334هـ/945م)، وذلك بغرض إعادتها إلى طاعته، فخرّب كثيرا من مساجدها، وأخذ كثيرا من أهلها[4]. وأيضا نجد أنّ مدينة تبسة التي كانت مدينة كبيرة كثيرة الثمار، ومبنية بالصخر، تعرّض سورها للتخريب أيّام أبي يزيد مخلد بن كيداد [5].

وفي الضفّة الشمالية الشرقية لحوض المتوسط، تعرّضت مدينتي طبرمين ورمطة الصقليتين للتدمير والإحراق فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، حين أمر المعز لدين الله بإخلائهما فور إبرام اتّفاقه مع ملك القسطنطينية[6]. وأدّى أيضا الصراع بين الأمويين وحلفائهم في المغرب والفاطميين إلى هدم عدد من المدن مثل مدينة تطوان[7] .

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص194.

[2] – النويري، المصدر السابق، ج23 صص338-339.

[3] – ابن عذارى، المصدر السابق، ج1ص184

[4] – التيجاني، المصدر السابق، ص22.

[5] –البكري، المصدر السابق، صص222-223.

[6] –النويري، المصدر السابق، ج24 ص374.

[7] – ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج6ص290.

وفورَ خروج الفاطميين وارتحالهم إلى مصر، واستخلافهم لآل زيري بن منّاد، سُرعان ما نشب الصّراع بين أبناء بلكين بن زيري ووالقبائل الكتامية ثمّ ضدّ بعضهم البعض، ونتج عن هذا الصراع تخريب بعض المدن مثل ميلة في سنة (378هـ/988م) التي تشيرُ الرواية إلى أنّه عقبَ خروج المنصور من القيروان غازيا لكتامة، و بعد أن اقترب من ميلة لقيته النساء والعجائز والأطفال بعد أن عبّأ جيوشه لمحاربتها، يرجون رحمته، فتأثّر لحالهم وبكى شفقة عليهم لكنّه طالبهم بترك المدينة، وأمر بهدم سورها وتسيير من فيها إلى مدينة باغاية فخرجوا بجماعتهم، فلقيهم ماكسن بن زيري فأخذ جميع ما معهم، وبقيت ميلة خرابا[1].

وأدّى الصراع بين الحمّاديين والزيريين إلى تخريب عدد من المدن الأخرى، فمدينة أشير التي بناها زيري وكانت جليلة حصينة، تقع بين جبال شامخة، وكان سورها مُحكم بناه بلكين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة (367هـ/977م)، قد خربها يوسف بن حماد بن زيري واستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد 440هـ، وهو ما جعل النّاس يتراجعون عن سكناها سنة بعد (455هـ/1063م)[2].

- الصراع بين القبائل:

ولم يكن الصّراع بين الدّول هو وحده من تسبّب في خراب كثير من عمائر ومدن الغرب الإسلامي، فالصراع بين القبائل المنتشرة في أرياف المدينة ساهمت أيضا في تدهور الأوضاع، وهو ما يمكن أن نلاحظه بالنسبة لمدينة وهران التي قام ببنائها مُحَمَّد بن أبي عون ومحمّد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران، باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن أحد بطون قبيلة أزداجة، وفي سنة (297هـ/909م) زحفت إليها كثيرٌ من القبائل يُطالبون أهلها بإسلام بني مسقن إليهم فأبى أهل وهران فحاصروهم ومنعوا عنهم الماء، فخرج بنو مسقن ليلا هاربين، وبسبب هذا الصراع القبلي خربت وهران واضرمت نارا.

وفي سنة (298هـ/910م) بأمرٍ من أبي حميد دوّاس بن صولات عامل تيهرت، أعيد بناء المدينة، فعادت أحسن مما كانت عليه وولى عليهم داود بن صولات اللهيصي محمّد بن أبي عون، ولم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال إلى أن أوقع يعلى بن مُحَمَّد بن صالح اليفرني

[1] -البكري، المصدر السابق، صص148-149.

[2] -المصدر نفسه، صص145-147.

بأزداجة بجبل قيدر-كهر- يوم السبت (14جمادى الأولى سنة 343هـ/19 أكتوبر 954م)، فدخل يعلى مدينة وهران وملكها ثمّ نقل أهلها إلى مدينته في ذي القعدة، وخرب مدينة وهران ثانية وبقيت كذلك سنين[1].

- خراب المدن بسبب الغزو النورماني:

خلال النّصف الأوّل من القرن السّادس الهجري نشطت البحرية النورمانية، لاسيما بعد أن خسر العالم الإسلامي صقلية، وهكذا دفعت المدن الساحلية الثّمن باهضا، فالمهدية التي كانت محطّ السُّفن تمكّن رجار من الاستيلاء عليها سنة (543هـ/1148م)[2]. ونفس الشّيء حدث لمدينة بونة، رغم أنها قد سورت بعد (450هـ/1058م) [3] إذ تغلب عليها أسطول نورماني بقيادة أحد رجال الملك رجار سنة(548هـ/1056م)وانتُزعت من آل حماد[4].

وتعرّضت مدينة برشك -قوراية حاليا- لغزو نورماني و نجح روجار في إخضاعها، لذلك ترك سكّان الكثير من السّواحل الممتدّة من شرق تونس إلى قريب من جزائر بني مزغنى مدنهم واعتصموا بالجبال والمرتفات، وبذلك قلّ سكان مدينة تامدفوس بعد خرابها وتهدّم أكثر سورها[5]. وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة مرسى الدجاج التي صار بشرها قليل، وربما فر عنها أكثر أهلها في زمن الصيف[6]. كما أنّ سوسة التي توالى عليها أمراء من العرب ملكوها حين استولوا على البلاد وانتزعوها من أيدي صنهاجة، واستقرت آخرا تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العنين الفادعي، ومن يده أخذها النصارى حين أخذوا المهدية من يد الحسن واستولوا على سائر بلاد السواحل [7].

---

[1] - البكري، المصدر السابق، ص157.

[2] - الإدريسي، المصدر السابق، ص283.

[3] -البكري، المصدر السابق، ص141.

[4] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص291.

[5] - المصدر نفسه، مج1 صص257-258

[6] - المصدر نفسه، مج1 ص259

[7] -التيجاني، المصدر السابق، ص30.

ومن المدن التي تعرضت للغزو النورماني مدينة جيجل، فقد فرّ أهلها إلى جبل على بعد ميل منها وبنوا هناك مدينة حصينة فإذا كان زمن الشتاء سكنوا المرسى والساحل وإذا كان زمن الصيف ووقت سفر الأسطول نقلوا أمتعتهم وجملة بضائعهم إلى الحصن الأعلى، وقد أصبحت المدينة أيام الإدريسي خرابا مهدمة الديار مثلمة الأسوار ليس بها ساكن[1].

وبالنّسبة للأندلس فلم يكن الأمر على أحسن حال، وذلك أنّ نهاية الدولة العامرية أدخل البلاد في عصر ملوك الطوائف، الذي عرف معاركا بين ملوك المسلمين ضد بعضم البعض وضدّ ملوك النّصارى، وربّما تحالفوا مع الممالك النصرانية مقابل التنازل عن الكثير من الحصون، قبل أن يدفعوا الثمن غاليا حين أظهرت هذه الممالك النصرانية نيتها في طرد المسلمين عن شبه الجزيرة الإيبيرية، وأدت هذه الحروب ضد الممالك الإسلامية وكذا الممالك النصرانية إلى خراب الكثير من المدن والحصون والقلاع بل وإلى سقوط مدن إسلامية كثيرة وإستيلاء النصارى عليها، وأهم تلك المدن طليطلة.

وخلال النّصف الثّاني من القرن السّادس الهجري أحكمت دولة الموحدين قبضتها على بلاد المغرب الأقصى وضمّت كلا من المغربين الأوسط والأدنى، ثمّ تقدّمت صوب الأندلس، وأنهت وجود الدّولة المرابطية والحمادية والزيرية، وأخضعت القبائل العربية والبربرية المتمرّدة، كما سعت لتحرير سواحل إفريقيا والمغرب الأوسط وصدّ هجمات النورمانديين. وأثناء قيام هذه الدّولة لحق عددٌ من المدن شيء من التخريب مثل مدينة صاع التي ذكر الإدريسي أنّه خربها المصاميد[2]. ومدينة سبتة الذي أراد عبد المومن بن علي تأديب أهلها بعد أن استعصت على جيوشه سنة (542هـ/1147م) فخرّبها[3].

كما أن تخليص بعض المدن من النورمانيين أدى إلى تخريبها، مثل مدينة سوسة التي هجم عليها أسطول النصارى وهم على غرة، فاستولى عليها وقتل وسبى وخرب البلد تخريبا عظيما قبل أن تلوذ جموعهم بالفرار خوفا من الموحدين، وهو الخراب الذي أثر كثيرا على سوسة[4].

---

[1] -الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص268.

[2] -الإدريسي، المصدر السابق، مج1ص247

[3] -حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص317.

[4] -التيجاني، المصدر السابق، ص30.

ومن جهة أخرى أدّى صراع الموحّدين ضدّ الثّائرين، خصوصا ابن غانية وابن مردنيش إلى خراب بعض المدن الأخرى مثل تيهرت وبجاية وهو ما أخلّ بالعمران في الغرب الإسلامي.

وقد نقل التيجاني عن ابن شدّاد نصا يلخص ما وصل إليه حال افريقية بسبب استيلاء علي بن اسحاق الميورقي عليها، حيث هلك العباد وخرب البلاد، ووأورد خبر منزل باشو في جزيرة شريك الذي يبعد عن تونس بمسيرة يوم والذي تعرض لنهب الأعراب والعبيد، ففر أهله إلى تونس ونزلوا بين سوريها، فدخل عليهم الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء، وأحصى من مات منهم بتونس فكانوا اثني عشر ألفا [1] وهو رقم كبير يبيّن لنا حجم الكارثة وأثرها على الديمغرافيا. ويبدوا أن الأمر تكرر على باشو أيام تحالف قراقوش الأرمني مع يحي بن اسحاق سنة (588هـ/1192م)، فقد أفسد هذا الهجوم نضرة صفاقس والمهدية ومنزل باشو[2].

وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة فخرّب كثيرا من أمصارها مثل تاهرت وغيرها، وهو ما أفسح المجال لتلمسان كي تتألق وتصبح فعلا قاعدة المغرب الأوسط، وتمّ أيضا تخريب أرشكول وعدد من القصور والأوطان مثل قصر عجيسة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات[3].

- خراب المدن بعد زوال دولة الموحدين:

على إثر نهاية دولة الموحدين، اختلّ أمر بلاد المغرب والأندلس كثيرا، بسبب الصراع بين المرينيين والزيانيين والحفصيين من جهة، وصراع بني الأحمر ضدّ المنشقّين عنهم من المسلمين من جهة، وضدّ الممالك النّصرانية من جهة أخرى. ففي سنة (670هـ/1271م) قام يعقوب المريني بهدم وجدة، عقب هزيمته ليغمراسن بايسلي، فانتقم منهم يغمراسن بن زيّان [*] و زحف إلى بلاد المرينيين وديار بني عبد القوي حلفائهم فخرّب الكثير من عمارتها[4].

---

[1] -التيجاني، المصدر السابق ، ص14.

[2] -المصدر نفسه، صص14-15.

[3] - ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج7ص105.

[*] -هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمّد العبد الوادي, أوّل من استقلّ بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد, بويع سنة 633هـ, وتوفي في طريقه إلى تلمسان عائدا من تونس سنة 681هـ. يحي بن خلدون, المصدر السابق, ج1ص204؛ عبد الرحمن ابن خلدون, ديوان المبتدأ، ج7ص105-122.

[4] -ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج7ص117.

وفي أيام السلطان أبي العباس المريني قام هذا الأخير بقتال أبي حمو الزياني، فأغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور أبي بتلمسان، والتي كانت قصورا حسنة، اختطّها السلطان أبو حمو الأوّل وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس، وذلك انتقاما من أبي حمو الذي خرّب قصر أبي العباس بتازى، وتخريب قصر ونزمار بمرادة[1].

ويشير حسن الوزان إلى أثر الصراع المريني الزياني على عمران المغربين الأقصى والأوسط عند حديثه عن مدينة تاوريرت التي بسبب نزاع المرينيين والزيانيين عليها، تعرضت للتخريب من طرف سلاطين بني زيان وبني مرين، لتتحول بعد ذلك إلى مدينة مهجورة بعد أن استبدّ بحكمها بعض شيوخ القبائل العربية[2].

- تأثير الحروب على الديمغرافيا:

لنا أن نستشف مدى تأثير الحروب على الديمغرافيا والعمران من خلال حصار أبي يعقوب يوسف المريني لتلمسان في نهاية القرن السابع الهجري، وبناءه مدينة جديدة هي المنصورة، فبسبب هذا الحصار الخانق مات خلق كثير واضطر السكان لأكل الجيف والقطط وأشلاء الموتى على حد تعبير ابن خلدون، وأطلق المرينيون أيديهم على المنازل المحيطة بتلمسان نهبا واكتساحا، فتضرر السكان، ومات خلق كثير منهم، ولم يبق منهم إلا نحو ألف مقاتل، وبضعة مئات من السكان من بينهم أمراء بني زيان، وبلغ عدد الموتى من أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة وعشرين ألف نسمة، وأصبحت المدينة شبه خالية من السكان، ولا شك أن العمران هو الآخر تعرض للتهديم والإتلاف بسبب القصف بالمنجنيق والدبابات وبمختلف أدوات الحصار وآلاته.

وفي أيام السلطان المريني أبو العباس تعرضت تلمسان أيضا للتخريب عند إستيلاء المرينيين عليها سنة (786هـ/1384م)، لكنّ سكّان تلمسان كانوا كلّما تمكّنوا من إفاشل الحصار أو طرد الغزاة عادوا إلى عمارة مدينتهم فيتضاعف عدد السكان و يعيد السكان تعمير المدينة وإنشاء وترميم ما تلف منها[3].

---

[1] -ابن خلدون، المبتدأ والخبر، ج7ص197.

[2] - حسن الوزان، المصدر السابق، ج1ص349.

[3] - عبد العزيز الفيلالي، المرجع السابق، ج1صص256-257.

وبسبب الصراع بين المرينيين والزيانيين خربت الكثير من القصور كقصر إيسلي الذي كان في القديم كثير السكان محاطا بأسوار متينة دمرت أثناء الحروب، فأمسى خاليا بعض الوقت ثم تحوّل إلى رباط لبعض المتصوّفة والزهاد، وصار عبارة عن أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش، كما تمّ تدمير دور مدينة ندرومة وأعيد بناؤها لكن بكيفية غير لائقة[1].

وفي أواخر القرن التّاسع وبدايات القرن العاشر، بدأت هجمات الأساطيل الإسبانية والبرتغالية على سواحل المغرب الإسلامي، فيما عرف بحرب الإسترداد، فسقطت كلّ من وهران والمرسى الكبير وبجاية وطرابلس وسبتة ومليلية وغيرها من المدن في قبضة الأساطيل النصرانية.

[1] -حسن الوزان، المصدر السابق، ج2صص12-13.

كان للهجرات السكانية أثر كبير على العمران، فبعض الهجرات كان تأثيرها إيجابيا على المدن التي انتقل إليها المهاجرون مثل الأندلسيين الذين استوطنوا عددا من المدن المغربية، فمدينة شرشال مثلا ذكر حسن الوزان أنّ النشاط دبّ إليها مجدّدا بعد أن سكنها الغرناطيون، وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة[1]. وأمّا سكان قلعة بني حمّاد فبعد أن انتقلوا إلى فاس تعلّم عنهم الفاسيون، كما أنّ قيام بلكين بن زيري بنقل أعداد من سكان تلمسان عقب حصارها إلى مدينة أشير، ساعد على زيادة عمارة مدينة أشير وأحوازها حيث بنى هؤلاء الوافدون الجدد عندها مدينة سموها تلمسان سنة(364هـ/974م)[2]. وتبقى هذه النتائج هي مجرّد استثناءات تُصنّف ضمن"مصائب قوم عند قوم فوائد"، وإلا فإنّ الهجرات السكانية كانت تُلحّص حجم الكارثة التي حلّت بالمدن المهجورة.

أ- الهجرات الهلالية ونتائجها:

كانت نتائج الهجرة الهلالية أو الغزو الهلالي في الغالب سلبية على المدن، فظهرت المدن المهجورة التي تركها أهلها بسبب انعدام الأمن أو انتشار الوباء أو اضطراب الأمور وانعدام المرافق، إنّ القبائل العربية التي زحفت على قرى وأرياف إفريقية والمغرب كان أفرادها متعلقون بالبداوة متشبّثون بقيمها، مُعادون للحضر متربّصون بهم، لذلك أسفرت هجراتهم عن خراب الكثير من المدن، وهو ما دفع بالسكّان إلى ترك مدنهم والتفرّق في الأمصار.

ويعزو ابن خلدون أسباب ذلك إلى العقلية البدوية التي راح يعدد بعض مظاهرها وسلوكياتها التي دفعتهم إلى الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسّياسة ومناقضة العمران, بقوله: ((فالحجر مثلا إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافيّ القدر فينقلونه من المباني ويخرّبونها عليه ويعدّونه لذلك والخشب أيضا إنّما حاجتهم إليه ليُعمِّدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخرّبون السّقف عليه)) [3].

---

[1] -حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص34.

[2] - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص245.

[3] -ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج1صص187-188.

وكانت القيروان أكثر مدينة كان لتخريبها صدى واسع وأثر بالغ، ففى سنة(446هـ/1054م) حاصرت العرب القيروان، وأخذ أحد شيوخهم وهو مؤنس الرياحي مدينة باجة، فأشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية. وشرع العرب فى هدم الحصون والقصور، وقلع الثمار، وتعمية العيون، وتخريب الأنهار[1]. ولم تكن القيروان وحدها من لقيت هذا المصير، فهناك مدن أخرى مثل سوسة التي بعد أن ملكها أمراء العرب هجرتها صنهاجة ومن جاورها من القبائل[2].

وبعد خراب القيروان انتعشت مدينة القلعة بعد أن انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وتحوّلت إلى مقصد للتجار من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب[3]. لكنّ ذلك لم يدم طويلا لأنّ الهلاليين لم يكتفوا بإفريقية وواصلوا التقدّم إلى أن هزموا الحماديين في موقعة سبيبة، وأحرزوا مزيدا من التقدم رويدا رويدا إلى أن حاصروا القلعة التي ما لبث أن تركها الحماديون وهو ما عجّل بخرابها[4]. وكان الناصر بن علناس قد بنى مدينة بجاية عقب موقعة سبيبة ثمّ تحوّل إليها، وانتشر الهلاليون في قرى الزاب، وبدأوا يتقدمون شمالا ويطرقون السهول مضايقين للقبائل الكتامية والصنهاجية والزناتية ومزاحمين لهم.

إنّ انتقال الحماديين عن القلعة عجّل بخرابها و ميلاد مدينة بجاية التي صارت في زمن الإدريسي مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، وذكر أنّ (السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع نافقة واهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ماليس بكثير من البلاد ، وأصبحت بجاية قطبا لكثير من البلاد[5]).

وأسس بنو حماد الجامع الأعظم ومسجد الريحانة ومسجد النطاعين ، وكان طول مسجد بجاية الأعظم بحسب فيرو 220 ذراعا وعرضه 150 ذراعا وله واجهة مزينة بسبعة عشر

---

[1] – النويري، المصدر السابقج24ص217.

[2] – التيجاني، المصدر السابق، ص30.

[3] – البكري، المصدر السابق، صص134-136

[4] – الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص261.

[5] – المصدر نفسه، مج1 ص260.

عقدا وباب كبير على يمينه ويساره ألواحا رخامية مزينة بكتابات رائعة الشكل، وبلغ ارتفاع مئذنته 60 ذراعا وضلع قاعدته المربعة 20 ذراعا[1].

وكما أنّ بجاية عمرت بعد خراب القلعة، فإنّ فاس تطورت تطورا كبيرا بعد أن تفرق أهل القلعة صوب ما حولها من البلدان، فبنوا بفاس جامع المعز وبنوا دورا كثيرة، وكان لهم الفضل في اكتساب الفاسيين حرفة البناء وفنون الطرب والتمدن[2].

ويتحدث الإدريسي وكذا التيجاني عن أثر الغزو الهلالي لبلاد إفريقية وكذا قرى الزاب وكذلك ابن خلدون وابن الشمّاع، والكلّ يؤكّد أنهم قلّصوا من عمارة المغرب الإسلامي وساهموا في تخريب عدد من المدن. ويشير الإدريسي إلى مدينة أطرابلس والتي رغم حصانته وتوفرها على سور حجارة، وما تتصف به شوارعها من الحسن والإتقان، وما تحويه من أسواق وكثرة العمارات فإنّ العرب قد أضرت بجميع جهاتها وبما حولها [3]. و تكلّم عن مدن أخرى على غرار مدينة باغاية التي بدأت تضمحلّ في عهد الإدريسي، فأصبحت أرباضها خالية بسبب تربص القبائل العربية [4] .

وفي القرنين التاسع والعاشر الهجريين استمّرت هجرات السكّان الذين طالتهم مضايقات الأعراب، مثل أهالي مدينة باجة التي قال عنها العبدري :(قد هتكتها الأيدي العاتية، ..حتى صارت وهي حاضرة بادية...وقد حدثت أن أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان... [5])، وأيضا مدينة مزغران التي ذكر حسن الوزان أنها :(كانت كثيرة السكان لكنها تعرضت لتعسفات الأعراب)، ونقل أيضا أن مدينة مستغانم فقدت ثلثي سكانها في الوقت الحاضر، بسبب الأعراب[6].

ب- هجرات الأندلسيين:

---

[1] - رشيد بورويبة، المرجع السابق، صص208-210.

[2] - الزهري، المصدر السابق، ص112.

[3] - الإدريسي، المصدر السابق، مج1 ص297.

[4] - المصدر نفسه، مج1 ص276.

[5] - العبدري، المصدر السابق، ص64.

[6] - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص32.

بعد تهاوي المدن الأندلسية سرعان ما فرّ عدد كبير من سكّان تلك المدن صوب بلاد المغرب واستوطنوا عددا من المدن المغربية ونقلوا إليها الكثير من الفنون المعمارية وطرائق البناء وأساليبه المبتكرة، ففي أيام أبي زكريا الحفصي وابنه المستنصر لجأت أعداد كبيرة من الأندلسيين بمدينة تونس، وخصوصا الوافدين من إشبيلية، واتسعت القاعدة الاجتماعية للمهاجرين، فلم تقتصر على العلماء والمتصوفة وأصحاب الخطط السياسية، بل ضمت الجنود وثلّة من حذّاق الحرفيين، وفي القرن التاسع وقبيل سقوط غرناطة، ازداد نسق الهجرة، فكان اللاجئون يبادرون بالإلتجاء إلى زاوية أحمد بن عروس عند حلولهم بمدينة تونس، ثم انتصبت زاوية أبي القاسم الزليجي في طرف الربض المغربي، وصار منهم فرق في الجيش وتدعمت بهم دار الصناعة وأشرفوا على قيادة الأسطول، وظهرت أحياء خاصة بهم داخل أسوار المدينة[1]. وفي المغرب الأوسط استوطن الأندلسيون مدنا كثيرة مثل مدينة شرشال التي انتقل إليها الغرناطيون وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا قلعتها[2].

وللأسف فإنّ عددا من الفارّين من محاكم التفتيش والذين لجؤوا إلى المغرب الأوسط قد تعرضوا لعلميات النهب والسلب، فقد استقبلت وهران قرابة 22000 ألف مورسكي, و لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم, فاضطر فريق منهم مكوّن من 500 إلى 600 مورسكي إلى التوجه نحو تلمسان, فنهبهم الأعراب، واتجهت جماعة أخرى مكوّنة من 40 مورسكيا إلى مستغانم لكن كان مصيرها هو مصير الجماعة الأولى[3] وقد وصف ذلك المقري فقال: ((فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم) و( وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم وبقر بطونهم مما يظنون ابتلاع الجوهر)) [4]، وعلى إثر ذلك أفتى

[1] – محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص152.

[2] –حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص34.

[3] – محمّد زروق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17هـ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط3، 1998م، ص131

[4] – أحمد بن محمّد المقري, نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، 1988م، ج 4ص528.

الشيخ مُحَّد أقدار التوجيني بوجود قتال قبيلة هبرة, فاستنهض الشيخ حميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة لاعتدائها على المورسكيين[1] بنواحي أرزيو[*].

ت- الهجرات بسبب الغزو البرتغالي والإسباني:

ساهم الغزو البرتغالي والإسباني لسواحل بلاد المغرب في هجر الكثير من سكان تلك المدن، وهو ما حدث لأهل طنجة بعد أن صارت تحت قبضة البرتغاليين[2]، إضافة إلى مدينة القصر الصغير[3] ومدينة سبتة أيضا[4]. كما قام البرتغاليون بتخريب مدينة تيطاوين[5].

وأمّا سكّان مليلية فقد فرّوا عندما بلغتهم أخبار تقدّم قوّة إسبانية نحوهم، لذلك خربها المرينيون ربّما كي لا يرغب الإسبان في البقاء فيها، لكن الإسبان حين دخلوا المدينة ووجدوها خرابا استقروا فيها وقاموا بترميم أسوارها وصارت بأيديهم، وأيضا تم احتلال مدينة غساسة التي وفر أهلها منها أيضا قبل سقوطها[6]. وانتشر سكان وهران وبجاية وجيجل حول الجبال القريبة من مدنهم.

ث- الهجرة بسبب الأزمات السياسية:

لم يكن بطش الأعراب أو الغزو البرتغالي والإسباني هو السبب الوحيد للهجرات، فالأزمات السياسية المتكررة كان لها دور فعّال في ذلك، إذ أن الصّراع بين القوى التي حكمت بلاد المغرب ضدّ بعضها البعض، وتمرّد بعض العمال أو القبائل أو الأمراء ضدّ السلطة الحاكمة دفع أيضا بعدد كبير من السكّان إلى الهجرة نحو أماكن أكثر أمنا واستقرار، خصوصا بعدما أعقب تلك الأزمات السياسية عدّة نتائج عسكرية أسفرت عن خراب العمران والإضرار بمرافق السكان.

---

[1] – حسب أبي راس الناصري في عجائب الأسفار فإن أحميده المذكور أتاه بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيح البخاري, ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة، فانهزمت وركبت سويد أكتافهم فقتلتهم كيف شاءوا.مُحَّد زروق, المرجع السابق, ص132.

[*] – أرزيو: مدينة ساحلية تابعة لولاية وهران, تقع بين من مراسي خليج مستغانم, كانت دار صناعة الخليفة عبد المومن بن علي واحدى مراكز أسطوله الضخم. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص195.

[2] – حسن الوزان، المصدر السابق، ج1ص315.

[3] – المصدر نفسه، ج1ص316.

[4] – المصدر نفسه، ج1ص318.

[5] –المصدر نفسه،ج1 ص318.

[6] – المصدر نفسه، ج1ص341.

فبسبب الصراع الزيري الزناتي أصبحت برقة فارغة من زناتة لذلك وجدتها قبائل بني هلال خالية فاستوطنتها قبائلهم، وبعد أن غزا بلكين بن زيري مدينتي تاهرت وتلمسان عقب حصارها خرج إليه أهلها، فعفا عنهم إلا أنه نقلهم إلى مدينة أشير[1].

وفي القرنين التاسع والعاشر الهجريين تفاقم الصراع بين السّلاطين الزيانيين ضدّ خصومهم الحفصيين وهو ما دفع بكثير من السّكان إلى الهجرة[2]. فمازونة بعد تعرّضها للتخريب من طرف الحفصيين أحيانا والثوار تارة أخرى والأعراب أصبحت مدينة قليلة السكان[3]. ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن مدينة البطحاء التي كانت كبيرة وآهلة بالسُّكان، قبل أن يدبّ إليها الخراب بسبب الحروب الداخلية بين أفراد البيت الزياني، وتم إحراقها وتدميرها[4].

[1] – عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص245.

[2] –حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص34.

[3] –المصدر نفسه، ج2ص36.

[4] – المصدر نفسه، ج2ص29.

من الواضح أنّ العلاقة بين العمران والديمغرافية هي علاقة تلازم، فالمعنى الذي يدلّ عليه مركب لفظتي "العمران" و"الديمغرافية" هو "العمران البشري"، فالعُمران غالبا ما يزيدُ حجمه بزيادة عدد السكّان، وتتنوّع مرافقه بتنوّع طبقاتهم وعقلياتهم فتتعدّد المؤسسّات السياسية والاجتماعية والدينية التي تتناغم مع مُتطلّباتهم، كما أنّ قيمة العمران ومدى رُقيّه من عدمه مُتعلّق بثقافة وذوق السّاكنة ومدى وفرة الحرفيين والصنّاع بالمدينة.

وكانت المدن الإسلامية في الغرب الإسلامي مع بدايات الفتح تشهدُ تنوّعا في النسيج الاجتماعي المشكّل لتجمّعها، فكان يعيش جنبا إلى جنب من أسلم من البربر من سكّان المدن، مع الأفارقة و عرب الفتح ومن انضاف إليهم. فيما كانت التجمعات البربرية الكُبرى تتوزّع على أطراف المدن أو في المدن الداخلية والصحراء، حيث ساهمت هناك في تنشيط الرعي وتأمين التجارة وتنظيمها.

إنّ المصادر الوسيطة تتسم بشحّ المعلومات حول الكثافة السكانية في المدن بما فيها الكتابات الجغرافية التي تبخلُ علينا بأيّ أرقام عدا ما نجده في كتابات حسن الوزان ومارمول، أو ما نفهمه من إشارات الجغرافيين والرحالة مثل قولهم عن قرية ما أنّها قرية صغيرة أو حقيرة[1]، أو نعتهم لبعض المدن بالعامرة أو المأهولة والكبيرة.

- مجتمع إفريقية والمغرب فمن خلال كتاب البلدان لليعقوبي:

في القرن الثالث ذكر اليعقوبي أنّه كانت تسكن شرق برقة قبائل من مزاته وغيرهم البربر، إضافة إلى العرب من بلى وجهينة وبني مدلج وغيرهم[2]، كما كانت منطقة قصور الروم و جب الرمل عامرة بديار البربر من ماصلة وأخلاط من الناس[3] أمّا في أرباض مدينة برقة فكان يقيم الجند وغيرهم، بينما دور المدينة كانت آهلة بأخلاط من الناس وأكثر أعقاب الجند[4]. أمّا جبال برقة فكانت مُستقرّ قوم من العرب من الأزد ولخم وجذام وصدف وغيرهم من أهل اليمن، يقابلهم في الجبل الغربي قوم من غسان و جذام والأزد ونجيب وغيرهم من بطون

---

[1] - محمّد حسن، المرجع السابق، ج1ص59.

[2] - اليعقوبي، البلدان، ص180.

[3] - المصدر نفسه، ص181.

[4] - المصدر نفسه، ص181.

العرب. وتتصل بهم قرى تسكنها بطون البربر من لواتة من زكودة ومفرطة وزنارة، أمّا مدينة برنيق فكان أهلها قوم من أبناء الروم القدم وقوم من البربر من تحلالة وسوة ومسوسة ومغاغة وواهلة وجدانة. ونفس الشيء نلاحظه بالنسبة لأجدابية التي استقر بها قوم من البربر من زنارة وواهلة ومسوسة وسوة وتحلالة وغيرهم وجدانة[1]. هذه الصورة تكادُ تكون مُتكررة بالنسبة لبقية مدن الغرب الإسلامي وما اتّصل بها من جبال وقرى وبوادي.

وكانت المؤثرات المذهبية أحد العوامل المتحكمة في التوزيع الديمغرافي للسكّان، فقد اتّخذت مزّاتة الإباضية من سرت موطنا لهم[2]. كما أقامت بزويلة طوائف إباضية كان فيهم من أهل خراسان من البصرة والكوفة في جوار التجمعات البربرية[3].

ويبدوا أنّ عمليّة تعريب السكّان في شرق بلاد المغرب الإسلامي كانت تخطو أشواطا متقدّمة في تلك الرقعة، فسكّان مدينة ودّان كانوا يدّعون أنهم عرب من اليمن بينما يؤكد اليعقوبي أنّ أكثرهم من مزاتة[4].

ونفس التركيبة نجدها بالنسبة لمدن إفريقية كقابس التي كان أهلها أخلاط من العرب والعجم والبربر، وأيضا القيروان حيث أقام بها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وكان بها أصناف من العجم من أهل خراسان وممّن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند وبها عجم من عجم البلد البربر والروم.[5]، وسوسة أيضا سكّانها أخلاط من الناس[6].

- ديمغرافية المغرب الأوسط من خلال كتاب البلدان:

فيما يتعلّق بمدن المغرب الأوسط فيُمكننا تتبّع ودراسة سكّان المدن والبوادي وأجناسهم، وذلك من خلال كتب الرّحلات والجغرافيا التي أمدّتنا بمعلومات قيّمة، لكنّها تكادُ تكون غير كافية من حيثُ رصد ديمغرافية السكّان، ومدى كثافة المدن من عدمها، ففي القرن

---

[1] - اليعقوبي، المصدر السابق، ص181.

[2] -المصدر نفسه، ص182.

[3] - المصدر نفسه، ص183.

[4] - المصدر نفسه، ص183.

[5] - المصدر نفسه، ص187.

[6] -المصدر نفسه، ص187.

الثّالث نجد أنّ اليعقوبي قد تحدّث عن مدن المغرب الأوسط ورسم صورة تكادُ تكون مُفصّلة للتّوزيع السكّاني آنذاك، فالمدينة يشرف عليها في الغالب أحد عمّال الأغالبة أو من تغلّب عليها من العرب أو تكون تابعة للرستميين أو من تغلّب عليها من آل البيت، ويقيم في المدينة أبناء الجند الفاتحين أوبقايا الجند الشامي والخرساني، جنبا إلى جنب مع بقايا البيزنطيين، والأفارقة وهم البربر الذين سكنوا المدن وترومنوا إبّان الفترة البيزنطية، وبعض الفروع البربرية الضعيفة التي فقدت القدرة على الرحلة.

أمّا ضواحي المدن من بوادي وأرباض ومرتفعات جبلية فكانت معقلا للتجمعات البربرية من زناتة وصنهاجة وهوارة ونفزة وأوربة وكتامة وغيرهم، وبعض هؤلاء البربر اندمجوا في الحركات الخارجية وخصوصا الإباضية، وبذلك شكّلوا تنظيمات مجتمعيّة مستقلّة عن كلّ الكيانات السياسية، فيما يمكن تسميته "دولة المدينة" كمدينة الجبل التي أشرف عليها ابن مسالة الإباضي من هوارة[1].

وقد سرد لنا اليعقوبي أحوال المدن فتحدّث عن مدينة طبنة مثلا فذكر أنّها كانت ضمن أملاك الدولة الأغلبية، و نزلها الولاة وأمّا ساكنتها فتكّونت من أخلاط من قريش والعرب والجند وغالبيتهم كانوا من أبناء الفاتحين ومن استقرّ خلال القرن الثّاني الهجري من الشاميين، إضافة إلى العجم من الخراسانيين الذين قدموا مع جند الخلافة العبّاسية، والأفارقة وهم البربر الذين أقاموا في المدن أيّام الوجود البيزنطي، والروم من بقايا البيزنطيين والبربر ونفس الشيء يمكن ملاحظته عند حديثه عن مدينة باغاية التي كان بها قبائل من الجند وعجم من أهل خراسان وعجم من عجم البلد من بقايا الروم، فيما تمركزت هوارة بجبل أوراس.

كانت التجمّعات البربرية تتوزّع على ضواحي وأطراف المدن، مثل نفزة التي استقرّت حول مدينة تيجس، وأيضا مدينة نقاوس التي حكمها قوم من الجند وكان حواليها البربر من مكنانة وهم بطن من زناتة رفقة قبيلة أوربة. بينما سيطرت بعض فروع القبائل العربية على بعض المدن، مثل مدينة ميلة التي صارت في يد رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس

[1] – اليعقوبي، المصدر السابق، ص195.

بن عبد الصمد، وسطيف التي أدار شؤونها قوم من بني أسد بن خزيمة وكانوا عمالا من قبل ابن الأغلب. ونفس الشيء يمكن قوله عن مدينة بلزمه التي كان أهلها قوم من بني تميم يُقيم معهم مواليهم[1]. وكذا مدينة مقرة التي كان أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداج وقوم يقال لهم كزبرة وقوم يقال لهم سارسة، و قوم من بني تميم من بني سعد يقال لهم بنو الصمصامة. أمّا مدينة أحه فأشرف عليها قوم من هوارة يقال لهم بنو سمعان وبنو ورجيل بينما سيطر البربر على بعض المدن الواقعة غرب إقليم الزّاب وشمال جبل الأوراس مثل بني برزال وهم فخذ من بني دمر من زناتة الذين كانوا شراة كلهم أي إباضية[2]، وأيضا مدينة هاز التي كان سكانها قوم من البربر القدم يقال لهم بنو برنيان من زناتة أيضا.

- التركيبة السكانية لمدن المغرب الأوسط في الفترة الفاطمية:

في الفترة الفاطمية نقل لنا ابن حوقل صورة عن التركيبة السكانية في مدن وقرى المغرب الأوسط لكن دون أن يعطينا إحصاءات عن عدد المساكن أو أي تقديرات عن الكثافة السكانية فمدينة وهران أخبر أن الغالب على باديتها البربر من يزداجه[3]وأمّا قسنطينيّة لكتامة، بينما مدينة سكن بلزمة بقايا العرب الفاتحين[4]، و أمّا بادس وبسكره وتاهرت فأشار إلى غلبة المذهب الإباضي عليها[5]، وتحدّث عن جبل أوراس الذي وصف ساكنته بقوم سوء، وأشار إلى طبنه التي كان أهلها قبيلتان عرب وبرقجانه، كما أنّ المسيلة عليها من البربر بنو برزال وبنو زنداج وهوارة ومزاتة [6].

---

[1] - اليعقوبي، المصدر السابق، ص190.

[2] - المصدر نفسه، ص191.

[3] - ابن حوقل ، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938 م، ج1صص77-78

[4] - المصدر نفسه، ج1ص93.

[5] - المصدر نفسه، ج1صص95-96.

[6] - المصدر نفسه، ج1ص88-90.

وهكذا استمرّ ابن حوقل في سرد ملاحظاته دون أن يُقدّم لنا أعدادا ولو تقريبية، وحتّى معلوماته حول التركيبة السكانية هي معلومات سطحيّة تُعبّر عن لسان حال المتغلب وتُهمل الجماعات الضعيفة المنضوية تحت رايته أو المنصهرة في مجموعه.

- التركيبة السكانية في الفترتين الزيرية والحمادية:

كان للبكري إفادات قيّمة حول أخبار مدن المغرب الأوسط لكنّها لا تعبّر عن عصره لأنّها كما هو ظاهر فهي منقولة عن يوسف الورّاق، الذي عاصر الدّولة الزيريّة إضافة إلى الدّولة الحمّادية في أوج قوّتها، فالبكري لم يقدّم لنا أرقاما أو تقديرات إحصائية، بل مجرّد كلام مجمل يغلب عليه الإختصار وسرد الغرائب والتنبيه إلى أهم الشوارد والنوادر.

ونلاحظ أنّ الخارطة السكانية للمدن لا تختلف كثيرا عمّا قدّمه لنا ابن حوقل، فمن حيث تركيبة السكّان تؤكّد المعلومات تحوّل كثير من القبائل البربرية البدوية إلى التمدّن وسُكنى المدن، وبذلك صار البربر يشرفون على مدن المغرب الإسلامي، فمدينة برقة كانت مستقر القبائل من لواتة ومن جاورهم من الأفارق[1]، فيما نجده يتحدّث عن تواجد الأقباط بأجدابية مع بعض اللواتيين[2]، وأيضا في أطرابلس التي أشار إلى أنّه يوجد حولها أقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية[3]. وأشار إلى مدينة كبيرة تسمى جادو –أوجلة– التي كان يسكنها يهود كثير[4]. و مدينة شروس –الحرابة حاليا– التي ذكر أنّها كبيرة وآهلة ، وأنّ أهلها إباضية . وأفادنا ببعض الأعداد حين تحدّث عن مدينة لبدة التي وصفها بالحصن، وقرّر أنّه يسكنها قوم من العرب جملتهم نحو ألف فارس وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر، وهم أزيد من عشرين ألفا بين راجل وفارس وظاهرون عليهم[5].

---

[1] – البكري، المصدر السابق، ص17.

[2] – المصدر نفسه، ص19.

[3] – المصدر نفسه، ص24.

[4] – المصدر نفسه، ص56.

[5] – المصدر نفسه، ص58.

أمّا مدن إفريقية فتحدّث عن قابس التي كان يسكنها العرب والأفارق، وحواليها توزّعت قبائل من البربر لواتة ولماية ونفوسة ومزاتة وزواغة وزواوة وقبائل شتى. بينما كانت جزيرة جربة مقرّا للتجمعات الإباضية[1].

وبالنسبة للمغرب الأوسط فيمكننا ملاحظة ما كتبه البكري حول قلعة أبي الطّويل التي هي قلعة بني حمّاد مستقرّ مملكة صنهاجة، وبلزمة التي سكنتها مزاتة وبقيت طبنة تتمتّع بحكم بعض العرب والعجم ويسكن حولها بنو زقراح والمولّدون والذين يبدوا أنهم من أبناء الروم الذين أسلموا وتعرّبوا مثل مولّدي الأندلس، وصار للمولّدين بعض المدن على غرار مدينة بسكرة[2] ، ونُصادفُ أيضا وجود تجمّعات بربرية إباضية لا تزال صامدة وتُحكم سيطرتها على كثير من القلاع المنتشرة في جبل أوراس[3]؛ فيما نجد قريبا من تيهرت مجمع الواصلية الذين كان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يُحملونها[4]، و بعض الجماعات الواصلية في بنطيوس يجاورهم قوم من الفرس يعرفون ببني جرج إضافة إلى المولدين مع العرب اليمنيين والقيسيين، كما كانت الجماعات الإباضية من قبائل هوارة ومكناسة تحيط بتهوذا التي استقّر بها العرب القرشيين[5].

وتمكّن البربر من إزاحة العرب عن عدّة مدن كمدينة سطيف[6] ومع ذلك فقد استمرّت بعض القبائل العربية في الإشراف على مدن أخرى مثل مجّانة وسبيبة وقرية الجهنيين[7]؛ وقرية الفهمين والأنصاريّين التي نزلها قوم من الأنصار من ولد جابر بن عبد الله. [8].

ونلاحظ أيضا تواجد العلويين من ولد إبراهيم بن محمّد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب الذين سكنوا تنس ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم وكانوا في أربعمائة بيت، فتوسّع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم، وهو ما يؤكد المنزلة التي

---

[1] – البكري، المصدر السابق، صص87-88.

[2] –المصدر نفسه، صص136-137.

[3] – المصدر نفسه، صص220-224.

[4] – المصدر نفسه، صص152-153.

[5] – المصدر نفسه، صص157-163.

[6] – المصدر نفسه، صص163-164.

[7] – المصدر نفسه، ص220-224.

[8] – المصدر نفسه، ص139.

حظي بها العلويون في بلاد المغرب الإسلامي عموما، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص[1]، وهو ما نراه أيضا فيما يخصّ مدينة أرشقول التي أشرف عليها العلويين وطبعا بجوار البربر والأندلسيين[2].

ويمكننا أن نستفيد في عملية إحصاء أعداد السكان على الوثائق المسيحية، مثل تقديرات البلنسيين الذين نهبوا مدينة دلس سنة(800هـ/1398م) وأحصوا عدد سكانها بحوالي 133 أسرة وبعد ذلك بخمسين سنة أصبحت تعد 2000 أسرة وكانت ضواحيها آهلة بكتامة وبني عجيسة[3].

- ديمغرافية مدن المغرب الأوسط خلال القرن العاشر:

في القرن العاشر أمدّنا حسن الوزّان بمعلومات قيمة عن الديمغرافية في بلاد الغرب الإسلامي مقارنة بسابقيه، ويهمّنا نحن ما ذكره عن بلاد المغرب الأوسط، حيث بدأت تظهر بعض الأرقام التي رغم عدم تأكّدنا من مدى دقّتها، بل وميلنا إلى أنّها بعيدة عن الواقع، إلى أنّها تبقى أرقام مهمّة للغاية وإليك أهم ما ذكره:

أشار إلى مدينة تبحريت الصغيرة والكثيرة السكان [4]. وتكلم عن تلمسان التي توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون سنة (698هـ/5ماي 1299م)، في القرن العاشر صار عدد دورها المسكونة ثلاثة عشر ألف دار[5].

وعند تعرضه لإقليم بني راشد اكتفى بالقول أنّ أهل المرتفعات يسكنون دورا لائقة مبنية بالجدران، وسكان السهول يسكنون تحت الخيام، وأنّ أهل المرتفعات يملكون قرى عديدة أهمها قلعة هوارة، تشتمل على نحو أربعين دارا للصناع والتجار[6].

وتحدّث عن عدد سكّان أحد الرباطات بمدينة البطحاء الذي بلغ عدد مريدي الشيخ نحو خمسمائة مريد، وبلغ عدد أولاد وأهل بيت الشيخ قرابة 150 نسمة، وكان يلتف حوله

---

[1] - البكري، المصدر السابق، صص144-148.

[2] - المصدر نفسه، صص163-164.

[3] -روبرت برنشفيك، المرجع السابق، ج1ص315.

[4] - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص14.

[5] - المصدر نفسه، ج2ص20.

[6] - المصدر نفسه، ج2صص26-27.

الأعراب. وعند حديثه عن مدينة وهران أشار إلى أنها مدينة كبيرة فيها ستة آلاف كانون، وبها البنايات والمؤسسات التي تتميز بها كل مدينة متحضرة[1].

وتطرق حسن الوزان إلى دور القبائل العربية الهلالية في تناقص الكثافة السكانية بعدد من المدن مثل مزغران وكذا مستغانم التي فقدت ثلثي سكانها بسبب الأعراب، رغم أنّها كانت تضم ألف وخمسمائة كانون[2].

أمّا مدينة الجزائر فكانت تضم نحو أربعة آلاف كانون[3]، فيما بلغ عدد كوانين مملكة بجاية ثمانية آلاف، بينما جيجل بلغ عدد كوانينها خمسمائة كانون، وأما سطيف فبسبب تربص الأعراب لم يتبق بها سوى مائة دار مسكونة[4].ووصلت عدد دور قسنطينة نحو ثمانية آلاف دار، وأمّا ميلة فبلغت ثلاثة آلاف كانون[5]. بينما نمت مدينة تقرت التي صارت مسورة وأصبح بها نحو ألفين وخمسمائة كانون[6].

[1] – حسن الوزان، المصدر السابق، ج2ص30.

[2] – المصدر نفسه، ج2ص32.

[3] – المصدر نفسه، ج2ص37.

[4] – المصدر نفسه، ج2صص50-53.

[5] – المصدر نفسه، ج2صص56-60.

[6] – المصدر نفسه، ج2ص153.

عالجت هذه الدّراسة قضيّة العمران والمراكز الحضارية في الغرب الإسلامي، فناقشت أهمّ الآراء التي تطرّقت لمسألة "العمارة الإسلامية"، ووقفت عند المحطّات التي عرفتها العمارة الإسلاميّة، وتوصّلنا إلى عدّة نتائج يمكن أن نبرزها كالتالي:

اهتمّ الفكر الإسلامي بقضية العمران ومسائله، فجاءت نصوص الوحي من كتاب وسنّة لتحثّ المسلم على عمارة الأرض وإصلاحها، كما أنّ كتب الأحكام السلطانية قد عكست مدى تطوّر الفكر الإسلامي ونضحه فيما يتعلّق بقضيّة العمران، وأمّا كتب الحسبة فكشفت عن وجود جهاز رقابي تمثّل في "سلطة المحتسب" مهمّته منع الغش في أعمال البناء والسهر على حماية مظهر المدينة ومنشآتها وساكنتها.

تميّزت العمارة الإسلامية بعدّة خصائص مميّزات فهي حلقة وصل بين الحضارة الحديثة والحضارات القديمة، وبوتقةٌ انصهرت فيها كلّ المنجزات العمرانية وطرائق الهندسة والتصميم وأنماط الزخرفة والتزيين التي عرفتها الإنسانية قديما، كما أنّ هذا النصهار رافقته روحٌ مفعة بالإبداع والإبتكار والتجديد، فكانت العمارة الإسلامية بحقّ مثالا عن تجاور الحضارات وتعايشها، وتناغم منجزاتها وآثارها.

كما تميّزت العمارة الإسلامية بالمرونة من حيث مواد البناء المستعملة حسب نوعية البناء وموقعه الجغرافي، ولم تهمل القيم الجمالية التي كشفت عن مدى صفاء مخيلة الفنان المسلم وسلامة ذوقه، وأيضا لم تُغفل القيم الأخلاقية من خلال المنجزات العمرانية التي حرص مصمّموها على ستر العورات ومنع التجسّس، ودفع كلّ أنواع الضرر التي قد يُلحقها الفردُ بالسّاكنة.

مرّت العمارة الإسلامية بعدّة مراحل فمنذ الفتح الإسلامي وإلى غاية نهايات العصر الوسيط تعاقبت العديد من الدّول، وكلّ دولة تركت بصمتها من خلال عدد من المنجزات العمرانية والمدن المستحدثة وطرائق البناء المتبعة ومواد البناء المستعملة. وتألقت عدد من المدن السلطانية مثل المهدية الفاطمية وبجاية الحمادية ومراكش المرابطية، كما أنّ تألق بعض المدن أسدل الستار عن مدن أخرى مثل تونس الحفصية التي قزّمت من دور ومكانة مدينتي المهدية

والقيروان، ونفس الأمر بالنّسبة لتلمسان الزيانية التي بسبب تألّقها تضعضعت مكانة تيهرت والقلعة وغيرها من مدن المغرب الأوسط.

وقد تسبّبت بعض العوامل الطبيعية والسياسية والبيئية في تدهور المدن والمنشآت العمرانية مثل الكوارث الطبيعية والحروب والهجرات، وأثّر كلّ ذلك على الديمغرافية في مدن الغرب الإسلامي.

وفي نهاية هذه الدّراسة نكون قد كشفنا عن أهمّ المراكز الحضارية في بلاد الغرب الإسلامي وما عرفته هذه المراكز من منشآت ومرافق متنوعة، وما شهدته من تحوّلات عمرانية وما حاق بها من أزمات ساهمت في تقهقرها أو أفول عدد منها. ونأمل أن تكون هذه الدّراسة قد وفّت بالغرض، وساهمت في إماطة اللثام عن جانب مهم من الجوانب الحضارية التي عرفها الغرب الإسلامي، ونتمنّى أن تكون هناك دراسات أخرى مكمّلة لهذه الدّراسة.

**الملحق الأوّل:** وثيقة استئجار البنّاء والحفّار

**وثيقة استئجار البناء والحفار**

استأجر فلان بن فلان فلان بن فلان البناء ليبنى له فى داره التى بموضع كذا بربض كذا أو فى جنانه التى بموضع كذا وحدوده كذا دارا عرضها كذا وكذا ذراعًا وطولها كذا وكذا ذراعًا بذراع كذا ويخدمها بجدران الطوابى بعد أن يقيم لها أساسًا من صخر من جميع جهاتها يكون تحت الأرض شبرًا وعليها شبرين وعرضه وغلظه شبرين وترتفع على الأساس حيطان طوابى أو طوب يحيط فى الدار ارتفاعها كذا وكذا وغلظها كذا ويبنى فيها بيتًا قبليا أو حوضا ارتفاعه كذا وطوله كذا وعرضه كذا من صفة البنيان المذكور ويصنع حواثره وحناياه وعدتها كذا ولعصته ويسقفه بالقراميد ويبنى على اسطوانها غرفة ارتفاعها كذا ويصنع جوائر سقفها وبعضها ويقرمدها بالطين والقرامد وعلى رب الدار فلان إقامة الآجر للبناء فلان والقفاف والطين والتراب والمجارف يعنى المساحى وغير ذلك مما يكون به البنيان.

فإن لم يذكر هذا استغنيت عنه وحملا فيه على ما قد عرف يعنى القفاف والمجارف ثم تقول: بكذا وكذا دينارًا دراهم بدخل أربعين دفع فلان منها إلى البناء فلان كذا وقبضها منه ويدفع إليه باقيها بعد انقضاء شهر كذا من سنة كذا. وإن شئت عقدت مقاطعة قلت: قاطع فلان بن فلان فلان بن فلان على أن يبنى له كذا وكذا تصف البنيان وتنوعه وتذكر طوله وعرضه ثم تقول: بكذا وكذا دفع فلان بن فلان جميع ذلك أو دفع إليه كذا وكذا وبقى له كذا وكذا بعد معرفتهما بقدر هذه المقاطعة ومبلغها مقاطعة مبتولة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار على سنة المسلمين فى المقاطعة وصدق المستأجر فلان البناء فلانا فى صفة البنيان المذكور بلا يمين تلزمه شهد على إشهاد فلان بن فلان وفلان بن فلان على أنفسهما بجميع ما ذكر عنهما فى هذا الكتب بعد إقرارهما بفهم جميعه من عرفهما وسمعه [٩٨ ب] منهما وهما بحال الصحة وجواز الأمر وذلك فى شهر كذا من سنة كذا وأجل ذلك الفراغ منه فإن انهدم قبل كماله فعلى المقاطع أن يقيمه ثانية ومعنى ذلك أنه على معنى الجعل.

المصدر: عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، 1997، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص496-497.

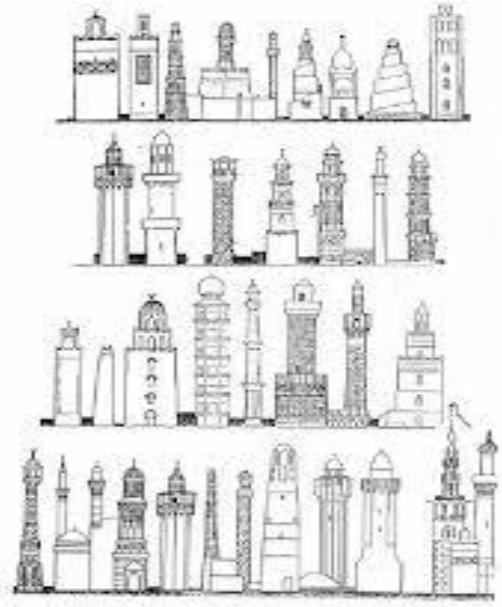
## الملحق الثاني: أنواع العقود والمآذن

بعض العقود بالجامع الكبير



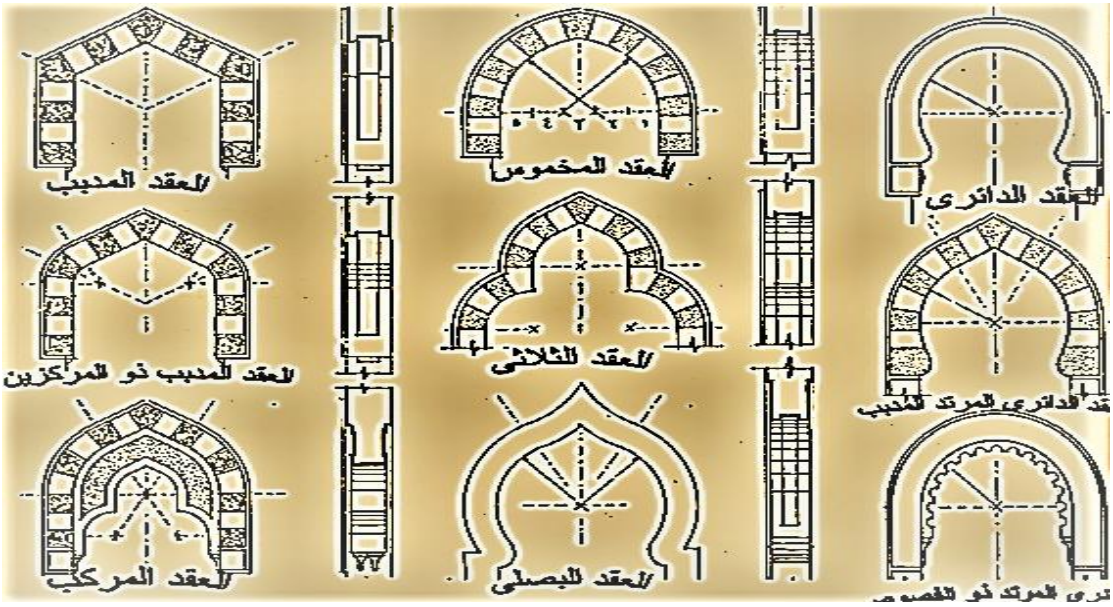
شكل (22)
مثال للعقود المتراكبة والمسكبة من مسجد عبدالرحمن الأول بالجامع الكبير في قرطبة

أنواع المئذنات في قرطبة



شكل (29)
أمثلة لأشكال متعددة من المآذن المستعملة في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه

أنواع العقود



## الملحق الثالث: بعض المنشآت العمرانية في مدينتي تلمسان وبجاية

### فناء الجامع الكبير تلمسان



**ساباط بتاقرارت –تلمسان–**



**قصبة بجاية**



## الملح الرّابع: صور لبعض المنشآت العسكرية

### سور مراكش: وفيه فتحات التهوية والمزاغل وإحدى بوابات المدينة

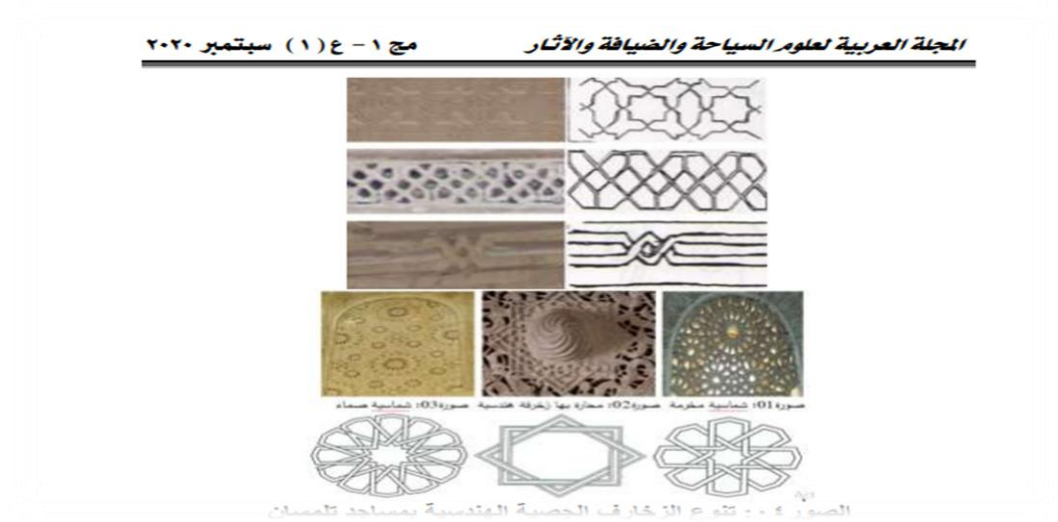


قلعة شاطبة



## الملحق الخامس: الزخرفة الإسلامية

### بعض أنواع الزخارف الجصية بمساجد تلمسان




مقرنص



زخرفة نباتية بقصر الحمراء



## أ- المصـــــادر

القرآن الكريم، برواية حفص.

ابن أبي زرع, الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنشور للطباعة والوراقة.

ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968.

ابن حوقل ، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938 م.

ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير، جامعة مُحَّد بن سعود الإسلامية، المكتبة المركزية، 1403.

ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحققيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2010.

ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمّد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي.

ابن قطّان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تحقيق: محود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1990.

ابن منظور محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3، 1414 هـ.

أبو بكر الطّرطوشي، سراج الملوك، دار من أوائل المطبوعات العربية، مصر، 1872م.

أبو بكر بن مُحَّد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.

أبو عبد الله بن محمّد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحقيق: حماه الله ولد السّالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2013.

أحمد بن إسحاق اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.

أحمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.

أحمد بن عبد الله بن عبد الروؤوف، في آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.

أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، منشورات: مُحَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ج24.

أحمد بن حسين بن القنف القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيةن تحقيق: مُحَّد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.

أحمد بن عميرة المخزومي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، تحقيق: محم|د بن معمر، دار الكتب العملية، بيروت، ط1، 2014.

أحمد بن محمّد المقري, نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، 1988م.

حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمّد حجي ومحمّد الأخضر، منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط2.

خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، دمشق وبيروت، ط2، 1398.

الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: مُحَّد زينهم مُحَّد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ط1، 1994.

عبد الرحمن بن خلدون:

- ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م
- المقدمة. تحقيق: عبد الله مُحَّد درويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004.

عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1964م.

عبد الرحمن السعدي، تاريخ السّودان، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012م.

عبد الله بن محمّد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981.

عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987.

عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1، 1997.

علي ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997.

علي بن محمّد الماوردي :

- درر السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.
- الأحكام السلطانية، الماوردي، دار الحديث، القاهرة، (د.س).

عمر بن عثمان الجرسيفي، في آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للثار الشرقية بالقاهرة، 1955.

عيسى بن موسى التطيلي، كتاب الجدار، إبراهيم بن مُحَمَّد الفايز، الرياض، ط1، 1996م.

قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق : مُحَمَّد حسين الزبيدي، دار الرشيد، العراق، 1981.

مُحَمَّد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

محمّد بن أحمد بن عبدون التجيبي، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بوفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.

مُحَمَّد بن أحمد العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'Etudes Orientales de l'institut Français de Damas, 1967.

محمّد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991م.

محمّد بن أحمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمّد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984، تونس.

محمّد بن الحسن الأزدي، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991 م.

محمّد بن الحسين الفرّاء، الأحكام السّلطانيّة، تعليق: محمّد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

محمّد بن جرير الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ.

مُحَمَّد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان.

مُحَمَّد بن عبد الله بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمّد ابراهيم الكتاني, الدار البيضاء: دار الكتاب, 1964.

محمّد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.

محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، مج1.

محمّد بن محمّد ابن الإخوة القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق مُحَمَّد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، العيئة المصرية العامة للكتاب،ط1، 1976

مجهول (ت ق 6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م.

يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

## ب- المراجع

أحمد توفيق المدني:

- كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر.
- أحمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

أحمد علي إسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، دار الثقافة، القاهرة، ط4، 1988م.

إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة لوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

باسيليو بابون مالدونادو، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005م.

الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة المغرب في عهد الموحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1981.

جان سوفاجيه، دمشق الشام–لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر–، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1936.

جورج مارسييه، الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرزاق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.

رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.

روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، بيروت، لبنان.

صلاح أحمد البهنسي، عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، جامعة عين شمس، كلية الآداب.

عاصم مُحَمَّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ط1، 2000، مصر.

عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 1996.

عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث-الجزائرالمدية مليانة-، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م.

عبد الرحيم بن سلامة، المملكة المغربية تعريف بالمدن والقرى والقبائل والأسر والجهات، مطبعة الأمنية، الرباط.

عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 1996.

عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، دار الطليعة، بيروت، 2008.

عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ، ثقافية)، موفم للنشر، الجزائر، 2007.

عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، 1980.

فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994.

ك.كريزويل، الآثار اللإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1984م.

الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية-تاريخ إفريقية في عهدي بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م-، ترجمة : حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.

هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1993.

مُحَمَّد زروق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17هـ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط3، 1998م.

مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر المرابطين وفنون المستعربين، ترجمة: لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.

مُحَمَّد طالبي، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-5هـ/800-909م)، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1995.

محمّد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999.

مُحَمَّد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، أغسطس 1988، عدد 128، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

مُحَمَّد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت.

مُحَمَّد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط4: ج1-2-5)، 1997؛ ط2 (ج 3-4)، 1990.

موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

يحي وزيري، العمران اوالبنيان في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2008.

### ت- المراجع باللغة الأجنبية

Lombard.M, The golden age of islam, translated by Joan Spenser, Netherland.

### ث- المقالات

بن صغير حضري يمينة، نماذج من العمارة الدينية بقصري تقرت وتماسين، مجلّة آثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر02، عدد:15، 2016.

تمليكشت هجيرة، مدرسة السلطان أبي عنان فارس المتوكل على الله بمدينة فاس، مجلة الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر02، عدد:13، 2015.

توامة نعناعة، جدلية الأصول المعمارية لعنصر المحراب في العمارة الإسلامية، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، عدد11، ديسمبر 2016.

خليف مصطفى غرايبة، منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن ابي الربيع أنموذجا)، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد8، العدد1، 2015.

السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، عالم الفكر، الكويت، العدد01، جوان 1988.

مُحَّد عليلي، فلسفة العمران الإسلامي في العصر الوسيط، العبر للدراسات التاريخية والاثرية، العدد02 سبتمبر 2018،

محمّد عيساوي، الكوارث الطبيعية على بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (07-08هـ/13-15م)، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 02، العدد 02.

## ج- الرسائل الجامعية

أمين كرطالي:

- سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة دكتواره علوم، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر 02-، 2017-2018م.

- الفقهاء والحياة السياسية في المغرب الأوسط في القرنين (9-10هـ/15-16م)، رسالة ماجستير، اكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014م.

بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، السنة الجامعية: 2006-2007.

حيزية حيتامة, رثاء القيروان بين ابن رشيق وابن شرف-دراسة موازنة, ماستر, جامعة بسكرة: كلية الآداب واللغات, 2014-2015م.

محروق إسماعيل، العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ/13محتى 16م، أطروحة دكتوراه ، 2017-2018، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد.

مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب لأوسط (588-927هـ/1192-1520م)، ماجستير، 2008-2009، جامعة منتوري، قسنطينة، قسم التاريخ والآثار.

## فهرس المحتويات


المقدمة.....1

المحاضرة الأولى: (مفهوم العمران والعمارة الإسلامية).....5

المحاضرة الثانية: العمران في الفكر الإسلامي (من خلال القرآن والسنّة).....12

المحاضرة الثالثة: العمران في الفكر الإسلامي(من خلال كتب الأحكام السّلطانيّة).....18

المحاضرة الرابعة: العمران في الفكر الإسلامي من خلال(كتب الحسبة).....27

المحاضرة الخامسة: خصائص العمارة الإسلامية ( التواصل الحضاري والإبداع المعماري).....35

المحاضرة السادسة: خصائص العمارة الإسلامية (تنوع مواد البناء وتعدد المنشئات).....43

المحاضرة السابعة: خصائر العمارة الإسلامية ( مراعاة القيم الجمالية والروحية والأخلاقية).....60

المحاضرة الثامنة: مراحل التطور العمراني في الغرب الإسلامي إلى قيام الدولة الفاطمية.....65

المحاضرة التاسعة: مراحل التطور العمراني في عهد الدولتين الفاطمية ثمّ الزيرية.....77

المحاضرة العاشرة: مراحل التطور العمراني من المرابطين إلى نهايات العصر الوسيط.....90

المحاضرة الحادية عشر: تأثير الكوارث على عمران الغرب الإسلامي.....102

المحاضرة الثانية عشر: تأثير الحروب على العمران في الغرب الإسلامي.....111

المحاضرة الثالثة عشر: أهم الهجرات وأثرها على عمارة الغرب الإسلامي.....119

المحاضرة الرابعة عشر: العمران والديمغرافية(مدن المغرب الأوسط نموذجا).....125

الخاتمة.....133

الملاحق.....135

المصادر والمراجع.....140

فهرس المحتويات.....149